الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

أوراق كاتب عدل

صخر عرب



أوراق كاتب عدل

أوراق كاتب عدل

صخر عرب



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر 2018م - 1440 هـ

ردمك 978-614-02-3559-5



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (1-961+) 785107 - 785108 - 786233
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: (1-961+) 786230 - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إهداء

إلى الأصدقاء: المحامي منير مغنية، أختي نهى عرب، زوجتي ناديا حكيم، زملاء وزميلات المهنة.

ومن وقف إلى جانبي وشجعني لخدمة الناس.

قصص المهنة

قد لا تتطابق أسماء بعض الشخصيات والواقع، إلا أن أحداث الحكايات قد جرت فعلاً.

المحتويات

أصحابك هم زبائن مكتبك

جو انتخاب وجوه وعتاب

إسقاط مختار أو طائفية بالمقلوب

أوراق الصانعة أو "العبدة"

"ASOKA بيت" أو بيت أسوكا

مهيب وأدعيته

المتحول جنسياً والتوكيل

كيد النساء "عظيم"!

حتى لا يرث السوريون!

Immediately ومعاملات يوم العيد

"الدّبان يعرف بيت اللبّان"

ابن البلد والحارة والجيران

نصابون محتالون.. أم ظرفاء أغبياء؟

من الذي قال شبعت اللقمة؟

كم تبعد عنا سفارة لبنان في أوتاوا عاصمة كندا؟

وكالة طلاق

طائر السنونو

حاتم الزبون القديم

رمضان كريم

سيارة كركوبة - حديد كبّ للبحر

إقرار بيع سيارة

ألقاب وأنساب

اسم لبناية مفرزة

وإن أخطأ إليك أخوك

قضايا التاجر الملاّك خليل

رمزي وقصته

كَمَنْتَا شَسِيبِلْ

إفراز بناية بنهاية الألف الثاني للميلاد

مقدمة أولى

بقلم جوزف بشارة

في هذا الكتاب يتجلّى الأستاذ صخر عرب رائداً من رواد الأقصوصة. هذا الشكل الأدبـي الذي يقوم على تصوير الواقع الاجتماعي بإيجاز وبساطة بعيداً عن الإطناب والكثير من التفاصيل.

يسرد علينا قصصاً وأحداثاً كان شاهداً عليها عبر أزمنة متعددة، وذلك بأسلوب مشوق، ولغة حيّة خارج أي نمطيات معهودة.

قلم إحيائي، يعيد إلينا شخصيات مرّت ورحلت، فلا يكتفي هذا الضابط العمومي بضبط إقراراتهم وحفظ مستنداتهم، بل يعمد إلى حفر أثرهم، وذكراهم ولو بلمحة خطّافة يدونها على صفحات كتابه وكأنه سجل الخلود، هو الذي اعتاد أن يمسك سجلات دائرته الرسمية.

لا يكتفي الكاتب بقصّ وإيراد الأخبار بل يضمِّن أقصوصاته خلاصات فلسفية، ومواقف أخلاقية تتناول قضايا وإشكاليات ذات بعد إنساني عام.

أؤكد لك بأنني استمتعت بقراءة الكتاب أيّما استمتاع، ولا يسعني إلا أن أوصي الأصدقاء عموماً، والزملاء خصوصاً باقتناء نسخة منه، وإعطائه الحيّز الذي يستحقه ضمن لائحة قراءاتهم.

تحية لك مني ومن أعضاء مكتب المجلس، وإلى المزيد من العطاء والتألق.

جوزف بشارة

رئيس مجلس الكتّاب العدل في لبنان

مقدمة ثانية

بقلم عماد الدين رائف

ها أنا اليوم أنهي قراءة مخطوط "أوراق كاتب عدل"، فيقودني الكاتب ممسكاً يدي ليدخلني إلى عالم كتابة العدل عبر قطع بلّورية إضافيّة، يكمل فيها سرديّة المدينة عبر وجوه ناس المدينة، وأخبارهم وتقاطعات مصائرهم مع أكثر من نصف مليون معاملة، مرّ فيها الخط الزمني الفعلي للأحداث بين 7 تموز/يوليو 1980 و15 آب/أغسطس 2006. وما بعدها من أيام وسنوات حتى ما بعد تاريخ تقاعده في 10 تشرين الثاني/نوفمبر 2014. ولا يخفى أنّه بين هذين التاريخين، كان يمكن لصخر أن يضيف مئات بل آلاف القصص الأخرى، إلا أنّه انتقى 41 عنواناً، ونسج ترتيبها بعناية لتجسّد أبعاداً جديدة في جدارية ناس المدينة. وأظنّ أنّ لهذا التسلسل قيمة فنّية حيث يبدو وكأن القصص خيطت واحدة تلو أخرى بعناية، وجمعها الترتيب بعضها ببعض فغدت سلسلة هي أقرب إلى الرواية منها إلى قصص متنافرة. فضاء المكان في هذه الرواية دائرة كاتب عدل، يتسع ليصل إلى مدن وقرى وبلدان بعيدة، يسكبها القاصّ بأسلوب سلس هادئ بعيد عن التكلّف. والجديد في هذه القصص يتمثّل بزاوية الضوء الملقى على الشخصيات والأحداث عبر بؤرة المهنة ومصاعبها، لذلك يمكننا أن نقف على القصص من ثلاث نواحٍ مختلفة، لكل ناحية منها ما يميّزها.

الأولى أدبيّة، حيث يستكمل الكاتب فلفشة أوراق المدينة، عارضاً على القارئ وجوهاً وأحداثاً منها. وهو بذلك يضع لُبنة جديدة في بناء القصّة الاجتماعية الصّورية، ويضيف محفّزاً إلى الذاكرة الجماعية للمدينة، التي تتشارك الكثير مع المدن والبلدات اللبنانية الأخرى. وهذه الوجوه ليست من نسج الخيال، والأحداث كذلك، التي مرّت في خط زمني واضح بدأ في إحدى جولات

عنف الحرب الأهلية سنة 1980، ومرّ بالاحتلال الإسرائيلي صيف العام 1982، الذي أرخى بظلاله الكثيفة على النفوس، وصولاً إلى التحرير سنة 1985، وما تلاه، في انتظار قيامة الدولة، مروراً بحرب العام 2006، وحتى تاريخ التقاعد في خريف العام 2014، وما بعده، فالظروف الزمانية تترافق وشخصيّات متفاوتة العلم والحنكة وحسن التدبير.. وكذلك بين ابن المدينة وابن الريف، واللاجئ والنازح، وابن الدولة وابن الميليشيا، والعامل الأجنبـي وربّ العمل.

الثانية، تقنيّة، وهي للكتّاب العدل أنفسهم، إذ إن القصص تُظهر أن مهنتهم تستحق أن تُفرد لها مؤلفات خارج الإطار القانوني الفقهي، إلى رحاب القصّة الاجتماعية، فما من معاملة إلا ووراءها قصة تستحق أن تُروى. ويقدّم الكاتب هنا خدمة جليلة إلى مهنته، فتروي القصص في منطوق النصّ، وفي المسكوت عنه، احترامه الكبير لمهمّات المهنة وأدبياتها، وحق الزمالة فيها، وعلاقات الكاتب العدل بمكان عمله وأدواته، وتطوّر ذلك خلال عقود ثلاثة ونصف من الزمن، ودوام العمل، بالإضافة إلى سعيه الدائم نحو التطوّر. وتتطور القصص من عرض المهمّات مروراً بالأخلاقيّات وصولاً إلى رساليّة المهنة متى ما وضع كاتب العدل دائرته وأدوات عمله ومخزونه العلمي وخبرته الطويلة الناتجة عن ثقافة موسوعية... في خدمة الناس. ولا تخلو الحكايات من جوانب طريفة في هذه المهنة، حفظتها ذاكرة الكاتب لتضعها في مكانها المناسب، وفق مراعاة تامة للحساسيات الاجتماعية.

الثالثة، تنويرية، فهي لقارئ مثلي، مدخل إلى فهم كتابة العدل بتفاصيلها اليومية على مدى ثلاثة عقود ونصف من الزمن، والشروح الميسّرة التي تصحب الحكايات وتفصّل في المهمات الكثيرة المترتبة على كتّاب العدل، حيث يتناول الكاتب خبايا المهنة وخفاياها، وعلاقات المراجعين وأصحاب المعاملات بالآخر، ويبدو للوهلة الأولى أن هذه الناحية هي فائدة إضافية من القراءة، إلا أنّها أبعد من ذلك، حيث تبني هذه الجوانب في القصص، الأرضية الضرورية الملائمة لفهم طبيعة العمل اليومية، والطبائع المختلفة وأحياناً المتنافرة للزبائن، الذين هم في الضرورة النسيج المجتمعي المحيط بالدائرة سواء أكان هؤلاء الناس من أبناء المدينة، أم من محيطها والوافدين إليها.

كما يدخلنا في بعض المعاملات القانونية الشائكة التي تجد طريقها إلى الحلّ بفعل التصالح، أو بعامل الزمن. ويدلّنا الكاتب، من حيث لا يريد، على المنابع الأصيلة التي استقى منها ثقافته

وعلومه، بالإضافة إلى الأخلاق الرفيعة التي تحلّى بها طيلة فترة خدمته الناس عبر مهنته. فالثقافة والمهنية والأخلاق ليست طارئة، إذ كانت قبل ممارسة المهنة وهي مستمرة بعدها.

أطال المولى بعمر صديقي الكاتب، وزاد من قوته لمتابعة ما بدأه، فهذه القصص، كما أظنّ، ما هي إلا حلقة في سلسلة تلت "حكايات منسية من المدينة"، وروايتين قبلها "الأمل والمطر" و"نسيم الشمال"، وستليها حلقات أخرى تضيء على جوانب لا تزال مخفية أو معتمة من التاريخ الاجتماعي لمدينة صور، وللجنوب ولبنان.

عماد الدين رائف

كاتب صحافي - ناقد أدبي ومترجم

الاثنين 7 تموز/يوليو 1980

علمت فجأة بمرسوم تعييني كاتب عدل صور، وكنت أنتظر ذلك بشوق. توجهت فوراً إلى وزارة العدل في بيروت تحضيراً لمباشرة العمل. ولم أكن أعرف بوجود حوادث. "و يا غافل إلك الله".

كانت هناك معارك في شرق بيروت - مكان وجود وزارة العدل - وبالأحرى كانت الميليشيا العسكرية لحزب الكتائب في ذلك اليوم - وهو يوم الاثنين 7 تموز/يوليو 1980 - تقوم بتجريد التنظيم العسكري لحزب الوطنيين الأحرار، المعروف بالنمور من السلاح، وهو اليوم الذي سمي بعد ذلك بحوادث الصفرا، حيث وقعت أغلب العمليات العسكرية.

وصلت إلى الوزارة شرق المتحف. لم يكن هناك موظفون. وبدا الجو كئيباً وحزيناً. بعدما غادر أكثر الموظفين وأصحاب العلاقة والمراجعات، بسبب الاشتباكات الدائرة بالقرب. هناك سمعت أصوات إطلاق الرصاص والانفجارات القريبة والبعيدة. قابلت سيدة جميلة مرتبة في أواسط العُمر، تضع على صدرها صليباً ذهبياً كبيراً. ارتحت لمنظرها وبشاشتها وللصليب، مع شعوري ببعض الخشية. ويبدو أنها أحسّت بشعوري الودود نحوها.

سألتني بلطف عن اسمي ومن أين أنا. أجبتها وأخبرتها مع بعض الملاطفات بأنني من الجنوب. ولم أحدد.

ردّت قائلة، وبدا لي أنها لم تسمع كلامي جيداً:

- أنت من الجنوب إذاً. أهلاً وسهلاً بأولاد الجنوب. أنتم تدافعون عن الوطن بوجه السلاح الفلسطيني واليسار الدولي، والغرباء. وتدافعون عن الأرزة، وتحفظون الوطن.

لم يبدُ عليّ أي انفعال. وتابعت سماع تحليلاتها. ندمت لأنني حملت تذكرة الهوية المدوّن عليها المذهب، والتي رفضت أن أشطب المذهب عنها، وكنت من أتباع مبدأ "دعْ القديم على قِدمه".

تمنيت لو أنني حملت إخراج قيد إفرادي لا يكون المذهب مكتوباً فيه. وأدركت أن أية غلطة تودي بحياة الإنسان، لا سيما في هذه الظروف، لأن الطاسة ضايعة. وحينها، يذهب الإنسان بشربة ماء.

كنت موافقاً بقرارة نفسي بأن كلامها عن حفظ البلاد صحيح جزئياً، باعتبار أن اللبنانيين متفقون على ذلك، وإن اختلفوا على الوسائل، وعلى أسباب الحرب. ارتحت بعض الشيء لعفويتها وللبساطة التي تعبر بها عن أفكارها. ولكني خشيت من الخفّة التي تعبر بها عن آرائها، ومن ثرثرتها التي لا تتوقف. أخبرتني بأن الكتائب يقومون الآن بتجريد ميليشيا نمور الأحرار من السلاح. وبأن الشيخ بشير (تقصد الشيخ بشير الجميل) حسم الأمر، ويريد تنظيف الشرقية من التجاوزات والفوضى. وسألتني عن رأيي.

قبل أن أفكر بماذا أرد، جاء شخص يطلب المغادرة، لأن الاشتباكات خفّت، وسيتم إقفال الوزارة في الحال وخلال دقائق، ولن يبقى أحد.

خرجت. ولم يكن في الشوارع أحد على الإطلاق. ولم تكن هناك أية سيارة تسير على الطريق. وكأن هذه الأماكن ليست بيروت التي لا تهدأ ولا ترتاح. لم يكن سوى زخّات الرصاص، تُسمع بين الحين والحين، وبعض الانفجارات البعيدة.

أقبل سائق سيارة مرسيدس أجرة، وسألني عن وجهتي. أخبرته أنني متوجه إلى الكولا - موقف الكولا للسيارات هو في غرب بيروت -. أجابني أنه ينقلني إلى هناك على أساس "تاكسي" أي توصيلة عن خمسة ركّاب. وافقت فوراً وانطلق بـي. وكنت أحس بشيء من الخوف، استطعت إخفاءه بصعوبة. ومرّ من أمام حاجز مسلح للكتائب، وتوقف. سأله عنصر الحاجز: من أين الشباب؟

ردّ السائق: - من المنطقة - فأشار له بالعبور. كانت السيارة تسير، والانفجارات تزداد قوة وعنفاً.

وصلنا إلى الكولا. وسألت السائق كم يريد أجراً؟ فطلب 5 ليرات - حوالى الدولارين - نقدته 10 ليرات، فقال إنه لا يحمل فراطة (صرافة)، فشكرته وتركت له الباقي. ونزلت من السيارة، ورجعت إلى بيتي.

بعد ذلك هدأت الحالة، وتابعت بقية الإجراءات والمعاملات اللازمة. ودفعت الكفالة المالية، وحلفت اليمين، وأودعت نموذج توقيعي وخاتمي لدى الوزارات والإدارات المختصة. استأجرت مكتبا وفرشته وهيأت المطبوعات. وحددت يوم الجمعة 5 أيلول/سبتمبر 1980 موعدا لبدء ممارسة المهنة. ولكنني لم أعرف السيدة التي قابلتها بالوزارة وكانت تثرثر بالسياسة، هل هي موظفة في العدلية أم مجرد مواطنة ذات مصلحة صادف وجودي وجودها في الوزارة معاً. لم ألتقِ بها، ولم أسأل عنها.

الجمعة 5 أيلول/سبتمبر 1980

اليوم هو نهار الجمعة 5 أيلول/سبتمبر 2014، ويصادف عندي الذكرى الرابعة والثلاثين لبدء ممارسة مهنة كتابة العدل، وبدء السنة الخامسة والثلاثين والأخيرة، والتي لن تكتمل بسبب التقاعد الذي سيحل قريباً.

في مثل هذا اليوم من عام 1980، وكان يوم جمعة، بدأت عملي، وتفاءلت بيوم الجمعة. وكانت بداية طيبة عندما أتى أول زبون وكان المهندس الأستاذ جلال بيطار، وهو صديق عزيز لأخي الحبيب وصديقي بشر عرب، وصديق لي أيضاً، فاستبشرت خيراً. وجاء بعده أشخاص أعرفهم، وأظهروا لي التقدير والتشجيع والعاطفة وغمروني بها.

يومها قلت للجميع بأن هذه الدائرة هي لكل الناس الأغنياء والفقراء على السواء. فمن يحابي الأغنياء ولا يهتم بشأن الفقير فلا بركة به وبشغله.

أشكر الله على ما أعطاني. وأشكر الله على ما تحملت وخدمت ونصحت، وعلى كل ما عانيت وصبرت، وما لقيت من حب وتقدير الكثيرين.

أتذكر أنني حلمت يوماً بتأسيس كتابة عدل تنصح الناس وترشدهم، وتكون شعبية بسيطة بعيدة عن الفوقيات، وعن التعالي على الناس.

كنت يومها أحمل بداخلي حلماً كبيراً عن المعرفة والوصول إلى الحقيقة. تمنيت لو أعرف الأشياء والأشخاص والكائنات كما هي في الوجود، وأنال الحكمة، وأعرف الله والوجود. كنت خائفاً أن لا يكون العُمر كافياً لتحقيق هذه الغاية. وكانت تدور في رأسي أسئلة كثيرة عن الوجود، والتسيير والتخيير. حملت أفكاراً ومعتقدات ومفاهيم متنوعة عن المعرفة المادية والمعرفة المثالية، والحسيّة والإدراكية، ولم أجزم يوماً رأياً بمصدر المعرفة بين نظرية تفسير الوجود ونظرية تغيير العالم، والجدل بين قاعدة أن المادة تعي ذاتها وقاعدة أن الذات تعرف مادتها، والصلة بين المعرفة النظرية

والممارسة العملية. ومصدر المعرفة، هل تتنزل أفكارنا علينا من السماء أم تصعد من الأرض! كنت مقتنعاً أن الإنسان يرى ببصره وبصيرته معاً، ويدرك الأشياء بقلبه وعقله. وزادتني دراسة القانون حيرة، ثم صرت أسأل هل أن الحقيقة هي انعكاس للحق أم أن الحق ينبثق من الحقيقة؟ ووجدت نفسي منخرطا بكتابة العدل. فهل أجد الجواب، وأعرف الحقيقة يوماً من الأيام لو عرفت أفكار الناس وعشت قضاياهم وآمالهم وهمومهم؟ وأدرك الصلة بين المعرفة والعمل!

يقال إن الحقيقة موجودة حولنا وفينا وما علينا إلا النظر إليها لنراها!

لكن ماذا عن الإنسان؟ عن الشيء الذي بداخلنا. عن الحب واللذة والألم والغيرة والحسد والشجاعة والخوف والكره والانتقام والوفاء، وسائر المشاعر والموضوعات التي عالجها الإنسان منذ أقدم حضارات هذا الشرق حتى اليوم! ماذا عن الحرية والصداقة والقانون والملكية والاقتناء والولد والوطن، والحياة والموت؟ الفناء، والخلود ولقمة الخبز والبيت والمصير؟ الخير، والشر، والوجود والعدم؟ الله والكون؟..

أسئلة الإنسان منذ أن وعى نفسه، ووعى العالم، التي وصلتنا من الآباء لنسلمها للأبناء..

هأنذا أترك عملي، فهل عرفت ما كنت أسأل عنه، وامتلكت جواباً؟

أم أقول مع إيليا أبو ماضي مردِّداً: "لست أدري؟".

* * *

تقاعدت بتاريخ 10 تشرين الثاني/نوفمبر 2014، وبعث لي الزملاء والزميلات كعادتهم في المناسبات برسائل وتغريدات الحب والتقدير والتمنيات الطيبة، بالتخابر الهاتفي وعلى صفحة التواصل الاجتماعي - تيليغرام - (Lebanes Notary Public) الخاص بموقع الكتاب العدل، التي لن أنساها. كتب يومها الزميل جوزف بشارة، رئيس مجلس كتّاب عدل لبنان لاحقاً: "ليت الناس يحبون الكتّاب العدل مثلما أهل صور يحبون صخر عرب".

عرفت أنني زرعت شيئاً جيداً وجميلاً، ووصلتني حقوقي.

ولما استلم الدائرة كاتب عدل أصيل هو الزميل إبراهيم بلحص، وتعاونت معه لخدمة الناس، وإرشادهم وحل قضاياهم ولمست النزعة الإنسانية لديه، وعرفت غيرته على الناس وعلى مصالحهم، تأكد لي أن الطريق الذي اخترته يوماً كان صحيحاً، يسلكه غيري كثيرون، بغيرة وإخلاص.

العِقد الفريد

في بداية عملي ككاتب عدل، حضر إلى دائرتي محاميان شقيقان من آل مغنية، هما صديقان لي وللعائلة. أعتز ويعتز أبناء المدينة والمنطقة بصداقتهما. فطلبا تنظيم وكالة عامة شاملة مطلقة من المحامي الأصغر منير للمحامي الأكبر إبراهيم.

جرى تنظيم الوكالة، وقمت بمراجعتها ودقّقت بها. خاطبت الموكل الأستاذ منير قائلاً: "إنك نظمت منك لأمر شقيقك المحامي الأستاذ إبراهيم وكالة عامة شاملة مطلقة، تجيز له فيها كافة الصلاحيات كالبيع والشراء والقبض والدفع والإيجار والاستئجار والمحاسبة والمرافعة والدفاع والتنازل والإبراء وإدارة الأموال والأعمال والتصرف التام المطلق بالأموال الجامدة والمنقولة والثابتة والمتحركة، وبتمثيلك أمام كافة السلطات والجهات والأشخاص، والحلول محلك بكل شيء، فيقدر - أن يبيعك ويشتريك -".

قال لي مبتسماً: "أجل. أجل. عرفت ووافقت، وقبلت. هل تفعل ذلك مع الجميع وحتى مع رجال القانون، أين أوقّع؟ سأوقّع هنا. حسناً.

ردّ أخوه الأكبر المحامي الأستاذ إبراهيم مستعيراً تعبيراً قرآنياً استعمله الصاحب بن عبّاد: **... هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا...** إنه تلميذنا. نحن نتشرف بهكذا تلميذ، ونقبل.

وهذان الأَخوان هما محاميان ضليعان بالقانون وحكيمان، وذوا ثقافة كلاسيكية - معاصرة عالية. ومن أقرب أصدقاء شقيقي معن، وصديقان لنا ولسكان المدينة والمنطقة وعلى صلات قوية وحسنة مع الفعاليات الجنوبية، ومن أكثر الناس غيرة على الناس.

أما مسألة الاستشهاد بقول الآية **... هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا...** المنسوب للأديب العباسي الصاحب بن عبّاد عن كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، والتي استعارها من القرآن، فمذكورة في مقدمة كتاب العِقد الفريد، وتقول الرواية:

"رحل كتاب ابن عبد ربه الأندلسي القرطبـي - العِقد الفريد - إلى الشرق تسبقه شهرته، ووقع في يد الأديب الصاحب بن عبّاد، فأقبل عليه مستغرقاً ثم طواه وهو يتلو **... هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا...** ويقول أسفاً: ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، فإذ به يشتمل على أخبار بلادنا".

فالكاتب الأندلسي روى أخبار أهل المشرق، لا المغرب كما كان يرغب الصاحب بن عباد ويود، فصارت استعارته القرآنية أمراً متداولاً.

والجملة هنا وردت في سورة يوسف، أخذها الصاحب بن عباد عن الآية في الكلام عند رجوع أبناء النبـي يعقوب من مصر لما وجدوا بضاعتهم (ثمن ما اشتروه) في رِحالهم (أوعيتهم) وقد رُدّتْ إليهم، محاولة من عزيز مصر - أخيهم يوسف - ليأتوا مصرَ، فقالوا ذلك لأبيهم يعقوب.

قلت لهما: في المرة الأولى ردّ النبـي يوسف البضاعة لإخوته فجاؤوا إليه مع أبويهم من البدو ليدخلوا مصر الحضارة ومركز الأرض، ولتجتمع العائلة، وفي المرة الثانية رُدّتْ بضاعة ابن عبد ربه المشرقية بكتابه الشهير العِقد الفريد، من الغرب إلى الشرق فأسِف الصاحب بن عباد، ولكنها حفظت تراث الشرق الجميل والعظيم من الضياع والاندثار، والآن ترتد بضاعة العدل والقانون لأصحابها، بشرى بمستقبل جديد للممارسات القانونية المشرقة في هذا البلد الغارق بالحروب والمآسي والفوضى والقلاقل، وبوطن ينهض حالماً بالحياة.

أنا راغب بالعمل مثل محاميين آمنا بالناس، فعملا لخدمتهم.

"بِدي أطُخوّ"

يتم التعريف بمعاملات كتابة العدل عادة بالهوية، وجواز السفر وبإخراج قيد أو بيان قيد إفرادي، وتكون عليها الصورة الشخصية ممهورة بالخاتم الرسمي، أو بتعريف شاهدين، أو بالمعرفة الشخصية من قبل الكاتب العدل للأشخاص المتعاقدين أو للشخص صاحب المعاملة، إذا كان يعرفهم. أما الشخص الأجنبـي فيتم التعريف عنه بجواز سفره حصراً. ويتم تعريف الشخص الفلسطيني المقيم في لبنان ببطاقة خاصة عليها الرسم الشخصي، تكون صادرة عن المديرية العامة لشؤون اللاجئين الفلسطينيين في لبنان أو بوثيقة سفر عليها رسمه. وأما التعريف ببطاقات النقابات والجمعيات والأحزاب والمنظمات وما شابه فمرفوض ويؤدي لإبطال المعاملة، ويُعَرِّض الكاتب العدل للمساءلة القانونية. وهناك سببان هامان لرفض التعريف بتلك البطاقات، الأول مادي حيث يمكن للجهة التي أصدرت البطاقة إصدار ما تشاء دون ضوابط، والثاني قانوني هو عدم اعتماد تلك البطاقات من الدولة، والقانون لم يُجِز ذلك.

مضت أسابيع على بدء ممارستي مهنة كتابة العدل، عندما حضر إلى الدائرة شخص يريد تنظيم معاملة، فطلبت منه إبراز بطاقة هويته. أخرج من جيب قميصه بطاقة الجبهة الفلسطينية المسلحة التي ينتمي إليها.

اعتذرت منه، وطلبت إبراز بطاقة الشؤون - البطاقة الخاصة الصادرة عن شؤون اللاجئين الفلسطينيين في لبنان - فصرح أنه لا يضعها في جيب قمصيه الصغير لأن حجمها كبير. أجبته أن استعمال بطاقة - الشؤون - لازم لإنجاز المعاملة الرسمية، وبعد ذلك فليحمل البطاقة التي يريد. سكت ولم يردّ وخرج، واعتبرت الأمر منتهياً.

عند الظهر قدِم إلى الدائرة مجموعة أشخاص مسلحين مصطحبين ذات الشخص الذي أبرز بطاقة التنظيم ورفضتها. تقدم المسؤول ملقياً السلام. أخبرني أنه جاء يعتذر عن تصرفات هذا العنصر غير المنضبط الذي أبرز بطاقة التنظيم. والتعليمات الثورية تحظّر على المقاتلين إبراز تلك البطاقة في دوائر رسمية، وتفرض استعمال بطاقة الشؤون.

أجبت بأن الأمر انتهى بخروج العنصر دون إشكال ولم ألحظ شيئاً. قال المسؤول بأن هذا الشخص عنصر غير منضبط، ويسيء التصرف دوماً، وأخلاقه زفت (قطران، أو سيئة) تخالف أخلاق الثورة، ويلزمه تربية ثورية، وأنه لما عاد إلى مكتب التنظيم طال بندقية الكلاشينكوف من خزانته، فسأله رفيقه عن الغاية، فرد شارحاً أن الكاتب العدل رفض قبول التعريف ببطاقة التنظيم. وقال له: "بِدّي أطخو" (سأقوصه) هكذا. فجرى توقيفه، وجيء به إلى الدائرة للاعتذار.

أجبت بأن لا داعي لكل ذلك، فلم يحدث شيء.

ردّ المسؤول بأنه في هذه الحالات يعتمد الأمر على موقف الشخص الذي وقع عليه الخطأ أو التجاوز، أو كاد أن يقع. فإن سامحه يقوم التنظيم بحبسه يومين في المركز، وإن لم يصفح، يُحال إلى محكمة عسكرية ثورية، ويُحبس لمدة أسبوعين أو أكثر، في أحد سجون الثورة.

أجبت بأنني أسامحه، وأتمنى أن لا يخطئ ثانية مع أحد لأنه يسيئ لنفسه، وللقضية الفلسطينية وثورتها أولاً، وللغير ثانياً. صافحته، وتمنيت عليه أن لا يغضب لما يجد الأمور لا تسير على هواه، وأن يظل هادئاً فلا ينفعل. وفي الحياة تحدث عادة أمور لا تعجبنا ونختلف حولها فنحلها بالانضباط وبالصبر. وخرج المسؤول ومرافقوه واعدين بعدم حصول أخطاء مستقبلاً، وعدم التهاون مع المسيئين للثورة.

جلست مفكراً بما جرى. متخيلاً الاحتمالات السيئة!

ماذا كان سيحدث لو قام "بالطخّ"، وبالقواص ببندقيته الكلاشينكوف! سيتم إضراب استنكاراً وربما لا يحصل شيء، ويُقدَم الفاعل للمحاكمة، ليتبين لاحقاً أنه ليس الفاعل الحقيقي بل هو شخص آخر؟ أو لا يتم تقديم أحد إلى أي محاكمة. وسيزيد ذلك من الخلاف اللبناني الفلسطيني! حتى لو جرت محاكمة عادلة فماذا أستفيد؟ لو لم يلاحظ رفيقه حركته، ربما حصل شيء فظيع! شعرت

بالخوف والقلق، ونشاف بالحلق، وتوترت وهدأت. كنت أناجي نفسي: شكراً لك يا حبيبـي يا الله، لعنايتك بـي ورعايتك إياي.

صرت أراجع ما جرى وأسأل: ما هو ما ذنب المقتولين ظلماً بتجاوزات وقلة وعي عناصر غير منضبطة؟ لماذا حظهم بائس وتعيس هكذا؟ لماذا يُظلم كثيرون نتيجة سفه وطيش من أحلّوا أنفسهم محل الدولة وأجهزتها؟

وبقيت حائراً دون جواب.

شهادة امرأتين

مضت أيام على بدء ممارسة مهنة كتابة العدل. ومع بداية الخريف طلب مني صديق للوالد الانتقال إلى قرية عبيدية القريبة، لتنظيم معاملة بيع عقار.

لبّيت الطلب، وخرجت عند انتهاء الدوام. انتقلت إلى منزل أصحاب المعاملة البعيد بعض الشيء عن مركز قرية عبيدية. حاملاً شنطة هي عبارة عن محفظة السامسونايت - Samsonite - الدارجة حديثاً والمدهشة، التي يتم فتحها وإقفالها بالأرقام! وبداخلها عدة الشغل من مطبوعات وأقلام ومبصمة (محبرة خِتم وتبصيم) وأوراق كزّ (كربون) ودبابيس وطوابع مالية وغير ذلك. كنت سعيداً بحمل هذه الشنطة الجميلة السوداء. فهي من النوع الأصلي، لا التقليد. وعلامة من علامات العلم والأستذة (الفهم) والتي يتباهى بها الشاب الصاعد والمتألق. وفي زاوية منها، قلم الحبر الستيلو (السائل) الأسود ماركة Parker الشبيه بالقلم الذي اشتراه لي الوالد بصف السيرتيفيكا، والذي سأستعمله بالتوقيع السري والسحري، فتتحول الورقة العادية إلى وثيقة رسمية تنبض بالحياة.

المهم، أنني كتبت عقد البيع الممسوح، حسب رغبة المتعاقدين. طلبت تأمين شاهدين. لأن وجود الشاهدين هو من شروط العقد. أجابني صديق الوالد:

- أقترح أن تشهد على العقد امرأتان ضيفتان حاضرتان ها هنا. لا تمتان بصلة قربى للبائعين والمشترين. وتحسنان القراءة والكتابة. هما الدكتورة ليلى والمهندسة منى. وتعرفان البائعين والمشترين، وهما لبنانيتان وتحملان هويتين. أليست تلك هي مواصفات الشهود؟

وإلا من أين سنحضر لك يا أستاذ شاهدين رجلين اثنين، ونحن ها هنا في بيت بعيد عن الضيعة، ومنعزل؟ و"الذي يحضر السوق يبيع ويشتري". كما هو المثل عندنا. دبر لنا القضية، وفكِّرْ بحل.

تلك كانت أول مرة يتم فيها طرح شهادة امرأتين على عقد بيع ممسوح، لا رجلين!

فيما كنت أكتب، صرت أفكر أن القانون اللبناني لا يمنع شهادة المرأة. ولا يوجد نص يحصر الشهادة بالرجال دون النساء. ولا أن شهادة المرأتين هي بشهادة رجل واحد. إذن فلتشهد الدكتورة والمهندسة.

نظرت إلى السيدتين الجميلتين المتعلمتين، اللتين بدتا بكامل جمالهما وترتيبهما وأناقتهما، اللتين ملأتا المجلس عطراً ورقة وسحراً. هززت رأسي علامة الإعجاب، فابتسمتا لي. وجدت من غير المنطق الرفض أو الاعتذار، ولا من اللائق التردد. فلو لم تكن شهادة المرأة قانونية، فلماذا تم في دورتنا تعيين كاتبة عدل هي الأستاذة ريموند بشور. فكان يجب أن تكون هناك كاتبة عدل ثانية توقع بالاتحاد مع الأستاذة ريموند. على قاعدة شهادة المرأتين الاثنتين بشهادة رجل واحد. ويجب أن تكون طبيبة ثانية مع الدكتورة ليلى تعمل بالتزامن معها في العيادة. ومهندسة أخرى تعمل بالتكافل والتضامن مع المهندسة منى. وهكذا، وهلم جرّاً. ألم أكن أسخر من النظرية الرجعية التي تعتبر "المرأة بنصف عقل" وأتصدى لها!

أنجزت المعاملة. كما هي بكل بساطة، فوقّع الفريقان البائع والشاري ووقعّت الشاهدتان على عقد البيع الممسوح.

خرجت سعيداً بثلاثة أشياء. أجرة المعاملة وكانت مبلغاً جيداً. وتشهيد امرأتين. وحمل شنطة samsonite فخمة سوداء.

أظن أن تلك كانت أول مرة تشهد فيها سيدتان على معاملة رسمية.

حدث ذلك عام 1980، منذ سنين صارت بعيدة. وكأنه جرى هذه الأيام، وقبل أن يتم التعميم بجواز شهادة السيدات كما الرجال.

كنت فخوراً بحيويتي ونضارتي وشبابـي، ومزهواً.

شغل رمضان وقت السحور

ومن الأشياء الطريفة، التي مرتّ عليّ أثناء الشغل، منذ أول رمضان بكتابة العدل، ما سألني إياه أحد الزبائن وهو ذات السؤال الذي تكرر في كل شهور رمضان:

- في أية ساعة يا حضرة الكاتب العدل تفتح المكتب، وتبدأ لنا العمل بين الإفطار والسحور؟

فأجيب بأنني لا أعمل بعد الإفطار، ولا أشتغل بالليل. فالليل للراحة والنهار للرزق. و"شغل الليل هو مسخرة النهار". وأصوم بلا سحور، فلا أحب الأكل وأنا نعسان. في الليل تطير الوطاويط، ويكثر الهناغرة والشبيحة، والأشرار لما تغيب الشمس، ويطلع أمراء العتمة والظلام، والمقصود هنا هم النصابون والمحتالون.

في شهر رمضان التالي سألني كثيرون ذات السؤال، وكررت ذات الجواب، وزدت عليه أنه يمكن الطعن بمعاملات الليل أمام القضاء فيتم استدعاء الكاتب العدل للشهادة، وأنا أعرف بعضها، ولا مصلحة لأحد بذلك. وتلوت الآية القرآنية **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا**. وصرت أستعين بآيات قرآنية وإنجيلية، وبالأمثال السائرة وبعض الأشعار والحِكَم المأثورة التي أحفظها.

ومنذ أول رمضان بعد العام 1980 ميلادي في العام 1401 هجري، وحتى آخر رمضان لي في المهنة بعد العام 2014، كان البعض يأتي في رمضان ويسألني ذات السؤال:

- متى تفتح الشغل بعد الإفطار وقبل السحور؟

لم يتغير شيء. ولا حتى بطريقة السؤال، وبقيت أجيب بذات الجواب.

- إذا كنا بالنهار وبالكاد خلصنا، فكيف بالليل؟

* * *

وتقاعدت في خريف العام 2014، وفي شهر رمضان صيف العام التالي سألني شخص:

- متى تداوم وتفتح المكتب مساءً بين الإفطار والسحور؟

أجبته بأنني تقاعدت ولم أعد أعمل. فسألني فوراً:

- هل تعرف كاتب عدل يشتغل بعد الإفطار فتدلنا على عنوانه؟

7 ديناري

نجيب من أوائل زبائن المكتب، وقد عرّفني إليه أحد الأصدقاء، عرفنا لاحقاً أن المرحومين والدينا كانا صديقين. اشتغل نجيب بتجارة استيراد السيارات المستعملة وبيعها. كان يسافر جواً إلى المملكة العربية السعودية أو إحدى دول الخليج العربـي، ويعود سائقاً سيارته براً عبر البلاد العربية، ويقوم بجمركتها، وبيعها في لبنان بموجب وكالة بيع سيارة يتم تنظيمها عند أحد الكتّاب العدل، وصار ينظم وكالات السيارات في دائرتنا، وكنت أسهل عليه الأمر، وألبيه دائماً.

عمل نجيب ذلك الحين بتخليص شراء الحصص الشائعة بالعقار الموجود ضمنه بيته في قريته القريبة الكرامية الذي يملك فيه 1200 سهم من أصل 2400 سهم، أي نصف العقار، اشتراها من أمه بموجب عقد بيع نُظِّم بدائرتنا. كان عدد الشركاء معه في الأرض كبيراً، حتى أن حصة أحدهم من السهام كانت أقل من عدد أصابع اليد الواحدة. والوصف المتداول هنا هو تفتت الملكية. ولطالما حلم نجيب بتملك كل الحصص من أصحابها وشرائها، لينتهي من حالة الشيوع ويشعر بالاستقرار.

أخبرني برغبته شراء كامل السهام، فلا يبقى معه شريك بالعقار، مثل "مسمار جحا". لكن المشكلة أن أصحابها كثيرون وموزعون في أماكن مختلفة!

أجبته أنه يلزم توفر عدّة شروط، فيكون جميع المالكين متواجدين في لبنان أو يوجد وكلاء عن الغائبين، وأن تتوفر عندهم الرغبة بالبيع، ويدفع لهم الثمن، وأن يعرفهم ويعرف عناوينهم أو يستدل عليها. فعندها نبدأ بتنظيم وكالات بيع، وإجراء معاملات حصر إرث وتصفية التركات بالمالية. ومن جهتي فأنا مستعد لمساعدته بتحقيق غايته. أخبرني أن البعض منهم يتعذر حضورهم إلى دائرة كتابة

العدل للتوقيع لأسباب متعددة، فقلت له: لا تشغل بالك. نقدر أن نذهب إليهم في بيوتهم شرط أن تكون ضمن نطاق كتابة العدل الجغرافي، وأن يكونوا واعين، أدفع لهم وأحصل على وكالات بيع أولاً، وسجِّل لاحقاً.

ردّت أمه أن الموضوع صعب وشاق ونفخة قلب -، فالورثة كثر مثل النمل، و"تجميع الجن الأزرق" أسهل من تجميع الحصص دفعة واحدة أو أكثر. ومن المستحيل تخليص تلك القراريط.

لكننا بدأنا العمل. صرت أنظم وكالات البيع العقارية اللازمة في الدائرة، فيأتي البائعون ويوقّعون. والكِبار بالسن وغيرهم ممن لا يستطيعون الحضور، كنت أتوجه إليهم برفقة نجيب وبسيارته إلى بيوتهم في قرية الكرامية والقرى المجاورة، وهناك كنت آخذ التواقيع.

صار بحوزة نجيب عدة وكالات، وبدأ يشتغل مع مكتب لتخليص معاملات الإرث والتركات وإنجاز نقل الملكية. استمر بشراء الحصص، واستمر العمل واستمر تنظيم وكالات بيع السهام والقراريط والنُتف. زرت أشخاصاً في بيوتهم، وتعرفت إلى الكثيرين، وجاء إلى المكتب أشخاص كثيرون.

عصر نهار، وكان نجيب قد أنجز شراء القسم الأعظم من الحصص ولم يبقَ إلا القليل، وكنت معه في قرية الكرامية أنظم وكالات بيع من شركاء، وإذ به يأتي غاضباً قائلاً: لن أكمل شراء العقار. سوف أمزق جميع المعاملات، العوض على الله! سألته عن السبب، فأجابني: تصوّر أن الوجيه ممدوح، يرفض القدوم إلى بيت شقيقته هنا، أو التوجه إلى بيته ولو لدقائق ليوقّع الوكالة، ويقترح أن يأتي الكاتب العدل إلى المقهى للتوقيع هناك. فهو يريد إكمال دور ورق الشدّة - ورق اللعب أو الكوتشينة - "فعلاً قلة ذوق، وقلة أدب، صحيح!". لا أقبل بإهانة إنسان عزيز وأستاذ محترم. لقد قال لي: تعال بكاتب العدل إلى القهوة لأوقع!

هدّأته، وسألته عن المقهى لأذهب وأتمّ المعاملة. ذهبنا سوياً، وبقي نجيب واقفاً قرب الباب خارجاً، حتى لا يلتقي بقريبه، ودخلت. وعلى إحدى طاولات اللعب كان الوجيه ممدوح جالساً مع ثلاثة آخرين يلعبون بالورق ومستغرقين في لعبهم. كانت رائحة الفحم والقهوة تملأ المكان والشاي، وسُحب دخان السجائر والتبغ وتنباك الأراغيل - النارجيلة - في الجو تخنق الأنفاس، وكان الصراخ عالياً.

ألقيت السلام، وسألته هل يبيع حصته لنجيب، وهل قبض؟ فسألني أين يوقع؟ ووقّع، وشدّ رامياً الورقة، خابطاً على الطاولة، صارخاً بصوتٍ عالٍ: 7 ديناري.

خرجت. بعد أسابيع كان نجيب يحمل بيده سند ملكية من 2400/2400 سهم لعقار بيته في الكرامية. وبعد أيام اجتاحت إسرائيل أراضي الجنوب، ووصلت إلى قلب العاصمة بيروت.

عقد بيع خلو محل دجاج،
واجتياح إسرائيلي

بيت الطاطو - وهذا هو لقبهم - عائلة بسيطة أتت من قرية بعيدة، يشتغل أفرادها بتربية الدواجن، من دجاج وبطّ وأوزّ وديك حبش (رومي) وببغاوات وعصافير وحمام ويمام وكنارات وطيور غريبة نادرة، وببيعها، وبيع بيوضها، وريشها. هم دائماً مشغولون بطعامها ومائها، وبأقفاصها وتنظيف القن ومطعميات الأكل والمشربيات، وملئها بماء جديد دوماً وتغيير الأكل والماء باستمرار، وبكافة شؤونها من تزاوج ورعاية القرقة - حاضنة البيض - وتفقيس وتربية الصيصان (الكتاكيت) وعزل السليم منها عن المريض وغير ذلك. وهم جماعة يتصفون بالطيبة والبساطة، وبقلّة التدبر والمعرفة في الأمور الخارجة عن نطاق وشؤون الدجاج والطيور.

في يوم الثلاثاء بتاريخ 1 حزيران/يونيو 1982، اشترى زهدي الطاطو محلاً تجارياً لبيع الدجاج، أو بالأحرى اشترى الملكية التجارية بكافة عناصرها المادية والمعنوية وتحديداً الخلوّ التجاري - عنصر الإيجار - دون الملكية العقارية فهي للمؤجرة، وحضر إلى المكتب مع البائع والسمسار لإتمام البيع. تم البيع بمبلغ خمسين ألف ليرة لبنانية (20.000 دولار) وهو أكبر مبلغ سجلته في دائرتي حتى ذلك الحين.

أخبرني زهدي أنه يرغب بالاستقلال عن أبيه وأسرته، ويريد أن يشتغل بمهنة بيع الدجاج الزراعي (إنتاج المزراع) التي يعرفها. شرحت له الطريقة الصعبة التي يتم بها نقل الملكية التجارية وأصولها، التي تتم قانوناً بتسجيل المحل بالمحكمة التجارية وإتمام البيع حسب الأصول بالسجل التجاري ودفع جميع الضرائب المتوجبة للمالية من تسجيل وضريبة دخل وضم براءات ذمة ونشر البيع بصحيفتين وبالجريدة الرسمية، وما يرافقها من خطوات، والذي هو الحل الأسلم والمضمون.

لكنه مكلف وبطيء. أو بالاتفاق مع مالكة الدكان الحاجّة بديعة، وإرضائها بدفع بعض المال وبزيادة بدل الإيجار، وهو غير مضمون وإن تكن المؤجرة المالكة بديعة امرأة سهلة وإيجابية، كما وصفها السمسار، ولكنها لا تتنازل عن حقها. والأصح تأجيل الشراء لتحضر، فتوقّع له عقد إيجار جديد، بعد أن يدفع لها مبلغاً ويزيد الإيجار.

ردّ زهدي: لا أفهم بالمحاماة (القانون) ونحن تربينا مع الدجاج، ولم يبعثنا أبونا إلى جامعات أوروبا. وعقلاتنا (عقولنا) أكبر من عقلات الدجاج بقليل، وننام معها عند الغروب. أنا ولدت في قنّ الدجاج. ولن أصير عالم ذرّة.

اكتب لي الورقة هنا قبل أن يطير المحل وأرفض التأجيل كي لا يأخذه غيري. سأتفق مع المؤجرة الحاجّة بديعة وأرضيها فاطمئن. جئت لأشتري بالعدل (كتابة العدل) على مسؤوليتي، فرجاءً لا تتعب عقلي. أُفّ. ياه. ما أصعب القانون. كم هو معقد وعويص!

نظمت عقد بيع خلو محل دجاج. دفع زهدي الثمن ووقع البائع والمشتري. ألصقت الطوابع وصدقت المعاملة واستوفيت الرسوم، وسلمت العقد للمشتري. أما البائع فأخذ نقوده بعد أن وقّع، وغادر البلاد.

في يوم الأحد بتاريخ 6 حزيران/يونيو 1982، قامت القوات الإسرائيلية باجتياح المناطق اللبنانية وصولاً إلى بيروت.

بعد أقل من 24 ساعة من بدء الاجتياح، واستمرار القصف بالمدفعية والدبابات والطيران، وتدمير المباني وسقوط أعداد كبيرة من القتلى والإصابات، كان الناس يخرجون بأعداد هائلة إلى الشاطئ الرملي الجنوبـي، بدعوة مكبرات الصوت التابعة لسيارات الصليب الأحمر الدولي والذي مركزه في جنيف، ويتجمعون في محلة الاستراحة Rest house مكان مكاتب الصليب الأحمر، وقد أتوا من أماكن متفرقة. جاؤوا من أحياء المدينة القديمة وأحياء الرمل ومن الضواحي والمخيمات الفلسطينية والبساتين وغيرها هرباً من الموت والقتل خلال اقتحام الإسرائيليين ودخولهم الأحياء والأماكن السكنية. بعض الناس لم يسمعوا بذلك فلم يأتوا. وصرنا مطوقين بين البحر وجنود الاحتلال ودباباته. والمعارك الحربية مستمرة، والقصف المتبادل بين الإسرائيليين والمقاتلين الفلسطينيين كان عنيفاً، ونراه يجري على بعد آلاف ومئات الأمتار، لا أكثر. وكانت أصوات

انفجارات القذائف تُسمع عالية وتثير ذعراً هستيرياً. كان الناس يتدافعون من الخوف والزحمة والعطش والتعرض المتواصل للشمس ولحرارة شهر حزيران/يونيو القائظة، وعلامات القلق والخوف والتوتر بارزة على الوجوه. لم يكونوا يعرفون ماذا سيحل ببيوتهم وأغراضهم. البعض كانوا خائفين أن يتم قتلهم أو أن تسقط عليهم قذائف، وآخرون كانوا خائفين من الاعتقال، وبكت البنات الصغيرات. شكا أحدهم سائلا: ماذا يشبه هذا اليوم؟ لم أر مثله. أجابه آخر: يشبه يوم القيامة. ردّ ثالث: وأضرَب (أصعب).

وإذ بصوت يناديني من بعيد، من بين عشرات ومئات الرؤوس السوداء: - يا أستاذ. يا أستاذ. قف مكانك، مضى وقت طويل وأنا أبحث عنك وأسأل أين أنت يا أستاذ صخر؟ توقف ولا تتحرك، الكل أخبروني أنك هنا ورأوك. صرت أتلفت، وشاهدت زهدي الطاطو الذي اشترى محل الدجاج منذ أيام يريدني لشأن هام، ليخبرني إنه خرج مع أهله من البيت ونسي أوراق بيع خلو محل الدجاج التي كلفته قرابة ثلاثمائة ليرة - حوالى 120 دولاراً - على الطاولة ونسي بالعجلة إحضارها معه، ويكاد عقله أن يجن خوفاً على خسارة المحل وضياع مدخراته.

سلمت عليه وهنأته بالسلامة، وقلت له: حتى لو ضاعت الأوراق فسأعطيك صورة عن نسخة الدائرة. سكت قليلاً، سأل: وماذا لو كان المكتب مدمراً ولم يبقَ للوثيقة أثر؟ كيف سأجمع خمسين ألف ليرة مرة ثانية. لقد بقيت طيلة العُمُر أدّخرها؟ قلت له إننا سندبر الأمر وسنستدعي البائع ليقر لك بالبيع من جديد. وصرت أهدئه، فسكت بعض الشيء، ولكنه بقي بجانبـي لا يفارقني كيفما مشيت أو تحركت.

بعد أن استأنف الناس حياتهم، أشرت على زهدي الطاطو أن يبِّت بموضوع إيجار محل الدجاج وينهيه مع المؤجرة الحاجّة بديعة التي جاءت للمدينة من بيروت هرباً من حصار العاصمة وقصفها، ويستغل وجودها لتنظيم عقد إيجار لمصلحته. وبعد مفاوضات ومداولات لم يتم الاتفاق على شيء. لم يتم تنظيم عقد إيجار جديد. اختلفا على نسبة الزيادة وعلى مقدار المبلغ الذي سيقدمه المستأجر للمؤجرة للموافقة. لم يكن المبلغ الذي طلبته المؤجرة كبيراً. لكن زهدي الطاطو لم يقتنع أن يدفع أي مبلغ إضافي للمبلغ الذي اشترى به الخلو، معتبراً أنه لا يحق للحاجة بديعة أن تطالبه بشيء، لأنها لم تبعْه الدكان، وسيدفع لها الإيجار.

عادت الحاجّة بديعة إلى بيروت، ولم تُجدِ كل المحاولات نفعاً أو تؤّدِ لنتيجة، وطلبت الحاجّة أن يتصل بها في بيروت لمتابعة الموضوع.

كانت الطرقات شبه مقطوعة أيام الاحتلال بين الجنوب وباقي المناطق وبيروت، وصار الناس يقطعون طرقات بعيدة وصعبة بالجبال وصولاً إلى معبر جزين - باتر الشوف، ويمضون أوقاتاً طويلة على المعبر، ومع ذلك قام الوسيط بعملية بيع خلو محل الدجاج - السمسار - بالتوجه إلى بيروت بناء لاقتراحي، وحصل على موافقة المؤجرة الحاجّة بديعة على أن يدفع لها زهدي الطاطو مبلغ ستة آلاف ليرة - حوالى 2400 دولار - مع زيادة لا تتعدى 10 بالمئة من بدلات الإيجار مقابل تنظيم عقد إيجار جديد له. بقي زهدي على موقفه رافضا العرض لأن بيت الطاطو - أهله - أقنعوه بأن على المرأة أن تحصل على حقها من المستأجر القديم لأنه هو الذي قبض الخلو! لم يقتنع زهدي بأن ذلك من موجبات المشتري لا البائع. ولما أخبرت السمسار أنني مستعد لتعويضه عن مشوار بيروت، ردّ قائلاً: اطمئن لأني أجريت هناك عملية سمسرة وقبضت جراءها مبلغاً معقولاً.

ووصل الرد للمؤجرة، وادعت على ابن الطاطو بمادة استرداد مأجور لإشغاله من دون وجه شرعي وقانوني، ولرفضه دفع أي مبلغ لصاحبة العقار، ولأنه لم يتحمل موجباته وفقاً لقانون الإيجار.

أخيراً خسر الطاطو دعوى المحل. طار المحل منه، وطارت الدجاجات والديوك والريشات والبيضات، وأُخرج منه وقامت صاحبته وأجّرته لمستأجر جديد، وبذات وجهة الاستعمال، وفتحه محل بيع دجاج.

اشتغل زهدي لاحقاً بعد أن أخذ درساً مما جرى بالكومسيون - السمسرة - وصار سمسار بيع وشراء وتأجير واستئجار محلات ودكاكين وبيوت وأراضٍ. واتخذ من كرسي بمحل خياطة رجّالي عنواناً له ومركزاً، ومن دفتر - كارنيه - صغير وقديم من أيام الستينيات يضعه في جيب قميصه دليلاً، وكتب عليه أرقام العقارات والمحلات المعروضة والمطلوبة، وعناوين أصحابها وأرقام هواتفهم. كان دائم الحركة والتنقل ليدل الناس على طلباتهم وعروضهم، وحقق مع الخياط الرجّالي ربحاً ودخلاً كبيرين تقاسماه جراء تعاونهما.

أخبرني الخياط مراراً فيما كان يأخذ مقاساتي لتفصيل بذلة:

- حصيلته - غلّة زهدي الطاطو - لا تقل عن مئات الدولارات يومياً. ومدخوله أعلى من مدخول كاتب عدل وطبيب. كأنه صيدلي أو قنصل. شغلته بلا رأسمال ولا مسؤولية ولا خطر، ولا مصاريف أو جمرك - ضريبة مالية -. لكنه يسرقني ويغشني عند إتمام الصفقات مع أننا اتفقنا على قسمة الكومسيون بيننا بالتساوي، ويكذب عليّ. لولاي ما تمت له عملية واحدة ناجحة. هو يغشني بالمحاسبة دائماً، ولا تقل عنه إلا أنه (سمسار) طمّاع وكذّاب، وشخص أزعر (رذيل)، يأكل حقوقي، وحقوق الناس.

قلت له: ويتظاهر بالغباء.

قال لي: إي والله، صحيح.

وكالة "عفش" دار

مرّ على الاحتلال الإسرائيلي عام 1982، وانسحاب قوات وفصائل منظمة التحرير الفلسطينية ومكاتبها شهور قليلة، وجاءت إلى دائرتنا سيدة فلسطينية طالبة تنظيم وكالة ـ عفش دار ـ؟ استغربت أختي نهى الموظفة، طلبها. وسألتها ماذا تكون وكالة ـ عفش الدار ـ التي تسمع بها لأول مرّة؟ والعفش هنا هو أثاث المنزل ومحتوياته. أجابت أنها تريد أن توكل قريبتها باستلام عفش الدار من البقاع والمجيء به إلى الجنوب. تعجبت أختي ثانية، وتعجبت أنا معها، وقلت لها إنه لا حاجة لهكذا وكالة، حيث يمكن جلب أغراض البيت وسائر العفش بالكميون من البقاع أو من أي مكان بدون وكالة رسمية. لكنها أصرّت على طلبها، وبأن ذلك لا يؤثر على شغلنا، وطلبها واضح صريح، وهو تنظيم وكالة ـ عفش دار ـ لأجل استلام العفش ونقله. لم توضح أكثر، وأصرّت على رغبتها.

نظمت المعاملة، ووقعت السيدة على وكالة استلام "العفش" والإتيان به، ودفعت المرأة الرسم، وكانت حينها 27 ليرة كما أذكر ـ حوالى 11 دولاراً ـ واستلمت السيدة معاملتها وغادرت.

بعد حوالى الساعة عادت ذات السيدة صاحبة "وكالة عفش الدار"، للدائرة، ولم يكن فيها أي زبون. تقدمت المرأة، طالبة التحدث معي جانباً، وقدمت الاعتذار بصوت منخفض:

- بصراحة، أنا كذبت عليك خيّا (يا أخي) لما أصررت على كتابة كلمة "عفش دار" بالوكالة. وجارتي أنبتني لأنني طلعت كذّابة. كنت خائفة فكتبت وكالة غلط، وأستحق لذلك التأنيب والعقاب. وهي أخبرتني بنص الوكالة.. الصحيح هو أن كلمة "وكالة عفش دار" تعني وكالة باستلام وقبض تعويضات العائلة من منظمة التحرير الفلسطينية الموجودة في البقاع بعد احتلال إسرائيل

للجنوب، والعائدة لأُسر الشهداء والجرحى والأسرى، ومخصصات المقاتلين. واللفظ مصطلح متعارف عليه عندنا في مخيمات الفلسطينيين، يُستعمل للتمويه بسبب الاحتلال، والكذب عيب. وها أنا ذا أطلب مسامحة الكاتب العدل، وأن يقوم بتنظيم وكالة جديدة، فيقبض رسومها من جديد وينسى الرسم المدفوع. والكل يثقون به وبوطنيته، وهو رجل وطني ومحترم.

بدا لي الأمر غريباً. بلعت ريقي (ازدرت ريقي أو لعابـي) وقلت لها:

- حاشى لله أن تكوني كاذبة. إنما الأمر محير ومقلق.

لكنني ارتبكت وتحيرت! فكيف أنظم وكالة قبض مساعدات من مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية ونحن تحت الاحتلال الإسرائيلي؟ انشلّ تفكيري. لم أعرف بماذا أردّ! هل أقبل فأُخاطر بحالي أم أرفض وأرد لها نقودها، وألوذ بالسلامة، فأصير بموقف حرج بين الناس؟

بدت السيدة الفلسطينية كريمة بعرضها، فهل أبادلها الكرم بإرجاع رسم الوكالة الذي دفعته لي، أم بموقف آخر؟

مجرد ثوانٍ خلتها زمناً طويلاً، استغرقت متأملاً. بقيت حائراً قلِقاً، ذاهلاً عما حولي. فكرت بقلبـي وتركت عقلي. إن قلب الإنسان هو سراجه في عتمة الشك ودياجير الحيرة، ودليله لما تضيع الطرقات والدروب. شعرت بخاطر ارتحت له أنار بداخلي، كما خرج الإمام أبو حامد محمد الغزالي من قلقه وتردّده "بنور قذفه الله في الصدر" وشرح ذلك في كتابه الشهير "المنقذ من الضلال".

- "الكرم الحقيقي هو التجاوب ببساطة مع طلب هذه السيدة، ومبادلتها كرمها بكرم، لا بالاعتذار منها وردّ أجرة الوكالة الغلط. تصرف بشكل طبيعي. تحمّل المسؤولية القانونية والوطنية بضمير وجرأة. لا مبرر لرفض تنظيم الوكالة، قم ونظِّم الوكالة، ولا تتردد. ما دمت ارتحت للمرأة فلا تخيبها". خاطبني خاطري.

كنت أعرف وأدرك معاناة الناس في ظل الاحتلال الإسرائيلي، وقسوة ظروف الفلسطينيين وآلامهم المتتالية. الموقف الرافض لأجل السلامة بتنظيم الوكالة نتيجة الخوف سيكون أمراً سيئاً ومستهجنا، ومرذولاً.

لم أتأخر بتنظيم وكالة القبض بعد أن اتضح المطلوب. شعرت وأنا آخذ توقيع المرأة، ببعض الخشية من إقدام القوات الإسرائيلية أو التابعين لها على ملاحقتي يوماً، أو على الأقل طلب كشف السجلات لمعرفة من ينظم تلك المعاملات ولمن تُنظم؟

في اليوم التالي حضرت ثلاث سيدات من المخيم الفلسطيني وطلبن تنظيم ثلاث وكالات "عفش" دار. صارت تلك الوكالة تزيد، ووصلت في تلك الفترة الصعبة والقليلة الأشغال إلى أرقام عالية. بقيت على شيء من الخوف، بعد أن انتشرت الوكالة وزادت. كان الكثيرون من الفلسطينيين وبعض اللبنانيين يأتون يومياً لتنظيم وكالة "عفش دار". ثم فكرت بشكل جدّي هكذا: قد ينتقم الإسرائيليون منك، ويصرّون على معرفة المتعاونين مع منظمات الثورة الفلسطينية والمقاومة الوطنية اللبنانية من خلال الوكالات، فماذا ستفعل؟ سوف أقول إن معاملاتنا سرية وأتمسك بطلب موافقة وزارة العدل التي أتبع لها، وأغلق الدائرة، وليحدث ما يحدث. ثم تذكرت أن الأسرى المناهضين لإسرائيل في معتقل عتليت بفلسطين وأنصار بلبنان ينظمون لأهلهم وكالات عامة من داخل معتقل الأسر، بواسطة الصليب الأحمر الدُولي، وبمعرفة وموافقة الجيش الإسرائيلي، وقد نظمت معاملات ووكالات قبض استناداً لها، فلِمَ الخوف؟ ولكن ماذا لو أتى الطلب من المسلحين المتعاملين مع إسرائيل المعروفين بشراستهم، وطلبوا الاطلاع على أسماء الأشخاص المقاتلين ضد العدو؟

تذكرت أن هناك أشخاصاً شجعاناً يقارعون المحتل ويضحون، فاستمددت قوة. وجدت أن من الأفضل عدم التفكير بالأمر. لقد اتخذت قراراً، وصممت على تنفيذه وعدم التخلي عن مصالح الناس، مهما كلفني أمر المحافظة على سرّية المعاملات، ومهما جرى، فهو جزء من ضريبة الكفاح والبقاء في الأرض.

في يوم الاثنين بتاريخ 29 نيسان/أبريل 1985 انسحبت قوات الاحتلال، وصرنا ننعم بالحرية. زال الاحتلال وبقي الوطن. انتهت حيرة تلك المعاملات. وتنفست الصعداء..

بقيت أسير دروب الآلام طوال سنوات، ولم أزل.

تصرفات رفعت وحكيه

(I) روزنامة الزعيم

رفعت رفيق مناضل في أحد الأحزاب، ورجل ثوري وصاحب مبادئ ومواقف، وله صولات وجولات بالتكلم بالسياسة وبتحليل الأوضاع والحديث عن المرحلة السياسية الحالية، والآتية التي ستحمل للناس المنّ والسلوى، والعلم وفُرص العمل المتساوية والحياة الكريمة. السيارة والمنزل والبراد والتلفاز، وحتى الأسرّة. التخت سيكون مثل "مهد عيسى ابن مريم". وكل وسائل الحياة العصرية والصحية الراقية، ستكون متوفرة، في العالم الطوباوي الجديد.

مرّ عليّ شهور أواخر سنة 1980 وأنا أمارس المهنة، عندما دخلت ثلاث صبايا جميلات يحملن روزنامة لحزب وعليها صورة الزعيم، بقصد بيعها لتأمين مدخول باعتبار ذلك نوعاً من التبرع.

دفعت قيمة التبرع - ثمن الروزنامة - التي تحمل صورة الزعيم، وأخذتها، ومن دون التملي بالزعيم وروزنامته والنظر إلى هيئته التي أعرفها، وضعتها في صندوق كرتون كبير بجانبي، حييت الصبايا عند خروجهن وتابعت شغلي.

جاء الرفيق رفعت ظهراً مع بعض الحزبيين، وبدأ بالانتقاد واللوم، لأنني ألقيت بروزنامة الزعيم في سلة الزبالة. هكذا! وأن حزبه ليس بحاجة إلى التبرع إن لم نكن نحترم الزعيم، ولم يكن عن حماسة واقتناع! ولا يجدر بكتابة العدل معاملة الزعيم بطريقة خاطئة. ولم ينسَ أن يخبر بأن الزعيم هو أنبل القادة والسياسيين!

مع استغرابـي لثورة رفعت المفاجئة والغريبة، ولكل ما قاله، قلت له إن الأمر غير صحيح، وما كان يجب أن يصدق أخبار النمّامين والنمّامات. ودعوته لإلقاء نظرة على الوعاء الذي وضعت فيه روزنامته بجانب أعداد من مجلات وكتب، وبعض المغلفات. وعاتبته لأسلوبه الغلط المتسرع، وغير المقبول مع كاتب عدل، وحتى مع أي إنسان.

بُهت من الحقيقة، ووقف مذهولاً، ثم قال: الروزنامة هي لتعلق على الجدار، لا لترمى بين رزم الأوراق. فقلت له: لا تنفعل لأن دائرتنا محايدة، وهي لكل الناس الراغبين بالمجيء إليها، وأنا لا أعلق أي روزنامة أو شعار لأحد، ولأية جهة. وتذكر بأن هذه دائرة رسمية، وإذا لم ترضَ فخذ روزنامتك والتبرع معها أو من دونه.

غادر متلعثماً: شكراً. شكراً. ولكن لا تنسَ أن الزعيم هو دليلنا للمدينة الفاضلة حيث الحرية والعلم والسعادة، وشعاراته هي النبراس.

في اليوم التالي قدِم وفد من الحزب ذاته، وقدّم الاعتذار عن تصرفات رفعت الحمقاء والمسيئة، وطلبوا مني تقدير ظروف رفعت العصبية، والتي ليست شيئاً جديداً. فأخبرتهم أنني أعرف كل ذلك وأستوعبه، ولا ألقي للأمر بالاً.

كانت علاقات رفعت مع زوجته وأهلها متوترة دائماً، وكان أهل الزوجة قلقين من تصرفاته ومن طمعه بمالها وبمالهم.

غداة الاجتياح الإسرائيلي عام 1982، كان الرجال مجتمعين منذ الظهر على الرمل الحامي بالشاطئ الشمالي في محلة ـ صلاح الخليل ـ. كنا نمر على المخابرات الإسرائيلية في طوابير طويلة مصحوبين بالهويات وإخراجات القيود ليتم الكشف على المتعاونين مع المخربين (المنظمات الفلسطينية بتعبير الاحتلال)، وندخل إلى المبنى المهجور ونعرض وجوهنا بواسطة كشاف مضيء أمام ـ المقنعين ـ الذين غطوا رؤوسهم ووجوههم بالكلسات السوداء، ليتم فرز الناس فريقين. فريق ناجٍ يتابع دربه وطريقه مغادراً بعد ختم الهويات بالعبرية، وآخر مغضوب عليه يتم شحنه بالآليات العسكرية الكبيرة وسوقه إلى مركز المخابرات للتحقيق معهم، وإرسالهم لاحقاً إلى معسكر الاعتقال في عتليت بفلسطين، ثم في أنصار بلبنان.

كنت من الفريق الناجي من الاعتقال. وكانت الدنيا أصبحت ليلاً، لما خرجت من الغرفة المظلمة، عائداً إلى بيتي مع الآخرين غير المطلوبين للاحتلال. وسمعت أشخاصاً ينادونني بالاسم ويطلبون أن ألتفت إليهم في الشاحنات لأخبر أهاليهم بنبأ اعتقالهم. أو لأستلم رزمة المفاتيح ونقوداً أو أغراضاً أخرى، أو لتوصيل رسالة للأهل والزوجة والأصحاب. كنت متحيراً لكثرة المنادين وعلى من أردّ، وحانت مني التفاتة إلى شاحنة أبعد، كان فيها شخص يناديني منها بصوت عالٍ، ويقذف لي رزمة ضخمة من المفاتيح المعلقة التي لم أعهد شخصا يحمل مثلها. أوصاني رفعت أن أوصل السلام لزوجته وأن أخبرها أن اعتقاله لن يطول وأن تنتبه لابنه ولنفسها وللجنين الذي في بطنها. وعبرت رزمة المفاتيح فوق رؤوس الشباب المكدسين في الشاحنة.

أوصلت الأمانات إلى أصحابها، وكانت زوجة رفعت وأهلها، وأهله مجتمعين حتى وقت متأخر من الليل، ينتظرون معرفة مصيره بقلق ولا يعرفون شيئاً، وتلقوا الخبر بشحوب واستلمت الزوجة غرضها منتحبة باكية. طلبت مني والدة رفعت أن أسامحه وأعامله على قدر عقله، وأخبرتني أنه تعرض في طفولته لحُمّى في رأسه نتجت عنها حالة عصبية وحمق! وكانت تنتحب. وصلت إلى بيتي متأخراً لكثرة المهام التي نفذتها، وأكملتها باليوم التالي.

استمر احتجاز رفعت مع الكثيرين وقتا طويلا في معتقل عتليت، ثم في معتقل أنصار. وخرج مع آخرين في عملية تبادل كبيرة للأسرى، وعاد إلى أهله. قمت مع آخرين بزيارته وزيارة محررين كثيرين لتهنئتهم بالسلامة. بقي رفعت كل الوقت واقفاً يبتسم متقبلاً التهاني، ويصافح المهنئين ويقبلهم، ويشكر الخارجين.

مع رجوع رفعت، رجعت المشاكل مع زوجته وأهلها والخلافات ذات الطابع المالي. و"رجعت حليمة لعادتها القديمة". زارتني زوجته حبيبة وأمها حسيبة في منزلي، وعرضتا عليّ مشاكلهما مع رفعفع - اسم الدلع الجديد لرفعت - وشرحتا تصرفاته التي لا تُطاق أو تُحتمَل، وكيف يطالب زوجته أن تعطيه مالاً، ولا يشبع من طلب المزيد، ويصرّ أن تنظم له حبيبة توكيلاً للتصرف بعقارها. ولو أنه أخذ كل مال الأرض فلن يكتفي. "الله لا يشبعه". هكذا قالت حماته حسيبة. وأما سبب تسميته - رفعفع - فمقتبس من المسلسل المصري - دعوني أعيش - الذي عَرِض في تلك الأيام من تمثيل سناء جميل، شريهان، سمية الألفي، دلال عبد العزيز، وسمير غانم، والذي يحمل اسم طلعت في القصة، ولكن أهل زوجته ينادونه - طلعلع - والذي يتخذ في الحكاية دور الشخص

الطمّاع والمحتال الساعي للاستيلاء على مال أهل زوجته، فيزوِّر المستندات لتحقيق غايته ويدخل السجن. طلبتا مني أن لا أُخدع بأقواله وأفعاله، وأن لا أقبل بمصادقة أي توكيل يخص زوجته، لأنها لم توقع له على ورقة، ولن توقِّع. وحتى لو وقعت السماء على الأرض:

- ورفعفع يدور هذه الأيام من مكتب كاتب عدل لآخر، حاملاً ورقة توكيل بيع أرض، ليصادق له أحدهم عليه فيبيع أرض زوجته. نطلب منك أن تنتبه وتحذر كلامه المعسول وأساليبه الاحتيالية، تقول لك بنتي حبيبة، قالت حماته حسيبة.

أجبتهما أن تطمئنا من ناحيتي لأن تنظيم الوكالات لا يتم عندنا هكذا. وهذه أمور لا أقبل بها من - رفعفع ومن غير رفعفع - وأنا أخبر الناس به.

طلبتا مني إخبارهما بأي شيء يحصل لاحقاً.

- ما هذا الغضب النازل علينا من السماء؟ تساءلت حسيبة. ودعت عليه ساخطة:

- "شو هالمصيبة يا حسيبة. لا حما ولا ضرّاً، ولكن سخط وغضب من الله!" الله يغضب عليك يا رفعت.

* * *

(II) حكاية: الكاتب العدل الزِنخ

بعد عشرين عاماً طلب مني رفعت المصادقة على محضر عقد تأمين عقاري مع أحد البنوك بقيمة (50000 دولار)، ووعد أن يدفع لي خلال مدة. وكلفة هذه المعاملة حوالى (400 دولار) فاعتذرت له لأن المديرين الموقعين عن فرع البنك نطاق عملهما هو في قضاء بعبدا، والصلاحية المكانية تعود لكاتب عدل في بعبدا وليس عند كاتب عدل آخر. ولم أقل لأنهما لم يوقعا أمامي، وهو الأصح، حتى أخلص منه. كنت أرغب بتجنب تنظيم المعاملة لشكوكي برفعت، ولكلفتها ولعلمي أنه لن يدفع رسمها يوماً، وستمر الأيام، ولن أحصل منه على شيء.

قال لي بأن فرع البنك لا يتعاطى إلا مع الأستاذ مازن. قلت له اذهب إلى الأستاذ مازن وأتمم عقدك هناك. قال: لا ارغب بالتعاطي معه لأنه شخص زِنخ، وسِمج لِتخ (ثقيل الدم)، وأنا لا أرغب بالتعامل مع ثقيلي الدمّ! الله خلقني لا أطيقهم.

كان زبون موجوداً حينها، فسألته عن حقيقة ما قاله رفعت عن الكاتب العدل.

أجابني: الشخص الزنخ هو صاحبك رفعت أو رفعفع، وليس الكاتب العدل مازن.

سألته: هل تعرف الكاتب العدل مازن؟

قال ثانية: كلا. بل أعرف رفعفع وزناخته.

بعد مدّة كنا نلتقي في وزارة العدل، وضمّني اللقاء إلى أعضاء صندوق تعاضد وتقاعد الكتّاب العدل الزملاء مارون عون ووهيب فيّاض وخليل أبو رجيلي وقاسم كاملة، وهم أعلام كبار في المهنة ومراجع في القانون، والأستاذ مازن أثناء عمل مهني، وقد تقاعد وبدا لطيفاً مهذباً وخفيف الدم، مرحاً، وصاحب نكتة وحديث شيّق وممتع، وروى لنا خبرية طريفة عن امرأة زغرتاوية اسمها فرنسا:

- لما انتُخب الرئيس الراحل سليمان بك فرنجية رئيساً للبلاد عام 1970، وعند أول زيارة له لمدينته زغرتا بعد استلام مقاليد الرئاسة، جرى له استقبال شعبـي زغرتاوي حاشد، وأحضرت له امرأة زغرتاوية اسمها فرنسا فراكة اللحمة المجبولة بيدها ليأكلها بالساحة، وكانت الست فرنسا موصوفة بخفة الدم والطبخ الطيب والزغاريد ودق الكبة، وخاطبته بصوت ملعلع:

آويها.. وجبلت لك الفراكي بئيدي

وغمستلك ياها بالزيت

آويها.. وريتوسراجك يضلو مضوي

ونورك مشعشع عالبلد والبيت

وآويها.. يا سليمان بو طوني لايقتلك

الكرسي والمسبحة والعوينات

لو لو ليش..

ضحكنا. كنت أتذكر توصيف رفعفع أو رفعت للزميل مازن - بالزناخة واللتاخة - وأفكر بالصلة التي تربط الاحتيال بالكذب وقلب الحقائق عند النصّابين والغشّاشين! وكنت أوجه تحية حب وتقدير للزميل مازن، لما صافحته مودعاً، شاكراً له هذا اللقاء الرائع.

في صباح اليوم التالي أتت دورية لقوى الأمن الداخلي بجيب مكشوف إلى بيت رفعت وألقت القبض عليه، وساقته إلى مخفر الدرك لإصداره شيكاً دون مؤونة لشخص، وكان الجيب يسير في الطريق ببطء بسبب ازدحام السير، والناس يسألون رفعت عن سبب إلقاء القبض عليه، فيجيب ضاحكاً: المسألة بسيطة، هي عبارة عن سوء فهم، والزعيم لن يتخلى عني، فهو صديقي ورفيقي. اطمئنوا.

مساءً كانت محطة تلفزيونية تذيع بياناً صادراً عن أحد الأحزاب، بأن المدعو رفعت ليس عضواً في الحزب، وبأنه طُرد منه عام 1990 لأسباب مسلكية، وبأن الحزب نشر قرار الطرد

مرتين في عدة صحف. ويؤكد الحزب ثانية أن لا علاقة به.

بعدما أمضى رفعت مدة محكوميته، وخرج ثانية إلى بيته وإلى حريته، التقيته بالطريق وسلمت عليه مهنئا وسألت عن صحته وأحواله، فأخبرني أنه كان مرتاحاً في سجنه، وكان جميع الدركيين يحترمونه ويقدرون ماضيه الوطني المشرّف، وعائلته المحترمة، وكان السجناء يحبونه لإنسانيته وتواضعه، ويعتبرونه زعيماً لهم جميعاً، ولم يكن ينقصه شيء إلا الحرية.

تاريخ صحيح لباخرة

إعطاء التاريخ الصحيح لأي سند هو معاملة تثبت وجود السند بالتاريخ الذي تم تسجيله في السجلات الرسمية. والكاتب العدل غير مسؤول عن المضمون أو صحته، شرط عدم مخالفة النظام العام.

أقبل إلى دائرة كتابة العدل في العام 1984 أثناء الاحتلال الإسرائيلي، شخص أعرفه، اسمه كرم الله، وينادونه اختصاراً - كرم - ولكن المتحلقين حوله، والمتملقين المتزلفين، ومن يقحفون (يغرفون) من طناجره، ويلحسون صحونه، ومن يحمل شنطته أو يفتح له باب السيارة، ينادونه - يا بيك. يا ريس. يا كبير. يا طيب، وشخص آخر عجوز يناديه - يا بـي الناس -.

كنت أعرفه من أيام الدراسة. لم نتفق يوماً على شيء. وهو متزوج بنت عائلة على صلة وصداقة بأسرتي.

حضر كرم الله، وبصحبته شخص يبدو أوروبياً، يضع على رأسه برنيطة (طاقية) ويدخن غليونه البايب المحشو بتبغ الكلان، وله كرش كبير.

قدمه لي بأنه مستر طومسون، من نيوزيلندا، وقبطان الباخرة الراسية في المرفأ Atlantic 7. ويريد مستر طومسون إعطاء تاريخ صحيح لنص مكتوب بالإنجليزية لدخول الباخرة ورسوّها. وترجمة النص:

"إن الباخرة Atlantic 7 قدمت يوم الاثنين بتاريخ 19 آذار/مارس 1984، إلى الميناء، ولم تتمكن من تسجيل الدخول رسمياً بسبب إقفال مكتب الجمرك لوفاة موظف".

والغاية من إعطاء التاريخ الصحيح هنا هي لتأكيد إثبات قدوم قبطان الباخرة بهذا التاريخ إلى دائرة رسمية، وتسجيل المستند كوثيقة تاريخها صحيح، كي لا يتم فرض غرامة بمئات آلاف الليرات عن كل يوم كما قال؟ - كان الدولار يساوي وقتها 4 ليرات أو أقل -.

أجبت موافقاً لعدم وجود مانع قانوني. لكن كرم الله طلب إعطاء التاريخ الصحيح بالتاريخ المذكور المحدد لمجيء الباخرة، أي الاثنين 19 آذار/مارس 1984، وهو يوم قدوم الباخرة Atlantic 7، وليس بتاريخ اليوم الذي نحن فيه، أي الخميس 22 آذار/مارس 1984.

رفضت، لأن يوم الاثنين مرّ وولّى. وجاءت بعده أيام. عرض كرم الله أن يدفع لي المبلغ الذي أطلب، مقابل التاريخ الذي يلزمه.

شرحت له أن صفحات السجل اليومي تكون للنهار الذي نكون فيه، ونقفلها في نهايته، والمعاملة المطلوبة جرى إقفال يومها. وبذلك نكون كمن يعطي شيكاً من دون رصيد.

رد متهكماً: هل يعلمونكم بالقانون في الجامعة إلقاء محاضرات على الناس هكذا؟

أحببت أن أجيب بسخرية مقابلة - نعم -. وعدت وتذكرت صلة بيت أهل زوجته بأهلي، فسكتت.

صار يروح في المكتب جيئة وذهاباً، ويقوم بالتنفيخ بصوت مسموع.

انشغلت عنه بتدوين معاملات، ولم ألقِ إليه بالاً. أخيراً خرج دون إلقاء السلام.

بعد أسبوع، هزت المدينة ليلاً عدة انفجارات متعاقبة، عكّرت سكون الليل وهدوءه وقتاً، وأحدثت خوفاً وقلقاً، وتساؤلات.

تبين عند الصبح أن انفجارات الليل طالت مكاتب ومحلات أشخاص متهمين بالتعامل مع الجيش الإسرائيلي المحتل، والمتاجرة مع التجار الإسرائيليين وترويج بضاعتهم، ومن جملتهم كرم الله، الذي دمرت محلاته ومخازنه بالكامل.

غادر كرم البلاد. ورحل إلى العالم الجديد في أقصى الدنيا، ووصل إلى أستراليا. وانقطعت أخباره زمناً طويلاً.

وعاد في التسعينيات، وتصالح مع الجمارك، ودفع ما عليه من رسوم جمركية، وغرامات بلغت حينها حوالى ثلاثة ملايين ليرة أو ما يعادل ألفي دولار أميركي، بعد انهيار سعر صرف الليرة اللبنانية المريع.

وصار يشتغل بالمقاولات وتشييد الأبنية، وبيع الشقق والمحلات.

حضر كرم يوماً إلى دائرتي، وطلب إعطاءه صورة طبق الأصل عن معاملة له فيها صفة قانونية.

أخبرني أننا لم نتفق يوماً. فربما كانت كيمياء كل منا لا تطابق كيمياء الآخر. أجبته مردداً قولاً قديماً: "وللناس في ما يعشقون مذاهب".

منذ مدة كنت أقود سيارتي بصحبة صديقين، وعند أحد التقاطعات كانت سيارة تحاول العبور قبلي. أحببت أن أعطيها أفضلية المرور، مع أن الحق لي، ولكن منظر السيارة بالزجاج الرصاصي الفيمي (الغامق) وعدم رؤية من بداخلها جعلني أتابع السير. تم فتح الزجاج الأمامي للسيارة المارة، ومد شخص يده سائلاً:

- ألن تعطيني أفضلية المرور يا أستاذ وتكرمني مرة؟ وكان المتكلم كرم.

مددت له يدي من شباك سيارتي وأوقفتها، بمعنى وإشارة - أن تفضل - وعبر الطريق قبلي.

سأل الصديق الجالس بجانبي: من يكون هذا الشخص الذي أعطيته أفضلية المرور؟ فأخبرته. فقال إن كرم هو رقم صعب بالمعادلة في دول غرب أفريقيا وشمال أوروبا، لا في لبنان فقط. إنما يرفض أن ينادوه إلا باسمه كاملاً وهو كرم الله، لا - كرم -. ولكنه لا يمانع أن ينادوه بلقب - حاجّ - بعد أن قام بأداء فريضة الحجّ في الأراضي المقدسة.

رد الصديق الجالس في المقعد الخلفي:

- "ولله في خلقه شؤون". سبحان الله.

ثمن عقار هو:
"كم سيخ" لحم غنم مشوي!

قرابة الظهر، وفي بداية ممارسة مهنة كتابة العدل عام 1980، حضر إلى الدائرة أشخاص من قرية معركة شرق صور، وطلبوا تنظيم معاملة بيع عقار في معركة ورثوه عن والدهم لشخص من قريتهم، حضر معهم.

وأهل معركة يتصفون بالعنفوان والأمانة، وبالصدق والطيبة والعناد، ويغلب عليهم طابع البساطة والصراحة مثل أغلب اللبنانيين، خاصة أبناء القرى والبلدات والمدن الصغيرة.

وجدت المستندات صحيحة وقانونية. وبدأت بتحضير المعاملة. سألت البائعين إذا ما قبضوا ثمن العقار. أجاب أحدهم أنهم سيقبضونه بعد أن يوقعوا ويغادروا.

أوضحت لهم أن ذلك متعذر، فعلى المشتري دفع الثمن ليوقع له البائعون على معاملة البيع. وذكرت لهم القاعدة الذهبية بالبيع وهي - الفراغ مرتبط بالسداد -. ولا يمكن أخذ التواقيع قبل الدفع. وأن عدم ذكر قبض الثمن يجعل العقد لاغياً.

ردوا بأنهم بمجرد أن يوقعوا سيذهبون إلى سوق اللّحامين (القصابين) القريب، ليأكلوا - كم سيخ لحم غنم مشوي - بضيافة المشتري، وبذلك يكونون قد قبضوا الثمن، ووصلتهم حقوقهم.

قال لي أحدهم: أكتب في الأوراق أن البيع تم لقاء - كم سيخ لحم غنم مشوي -.

أجبت أن ثمن عقار بأكلة لحم غنم مشوي، يعتبر ثمناً وهمياً وتافهاً يؤدي إلى بطلان العقد، وأوضحت بأن من مواصفات الثمن أن يكون جدياً وحقيقياً، ولا يجوز أن يكون غير واقعي، ولا

حتى رمزياً، كما يجب أن يكون نقدياً، وإذا لم يكن نقدياً، فيجب أن يكون بما يساوي قيمة المبيع. واستمررت بإلقاء - محاضرتي الفقهية - عليهم عن الثمن والسعر المتوجب تعيينه في عقد البيع.

ضحكوا قائلين إنهم جماعة دراويش وبسطاء وسيقولون الصدق. أخبروني بأن المرحوم والدهم باع العقار منذ ثلاثين عاماً للمشتري الحالي، وقبض الثمن، وكتب له حجةً بلديةّ (صك ذو توقيع خاص) بالتعريف القانوني. وقام بتسليم العقار منذ ذلك الحين للمشتري، الذي ظل يستعمله ويزرعه طوال المدّة. ولم يقم البائع والمشتري بالتسجيل حسب الأصول. ولما حضر المشتري وطالب الورثة ودعاهم للفراغ قاموا، فلبّوا، واتفقوا على إنهاء الأمر بصلح شرعي. فينتقلون لكتابة العدل، ويقومون بالفراغ والتسجيل، مقابل قيام المشتري بتضييفهم لحماً مشوياً من ملحمة المعلم محمد قرعوني أبـي فضل للغنم في سوق اللّحامين القديم، والتي تعد أطيب لحم غنم في لبنان. ردّ أحدهم: بل أطيب لحم غنم في كل العالم. وبذلك يكونون قد قبضوا الثمن.

ابتسمت للموضوع وطرافته. أنجزت المعاملة. قرأتها وراجعتها ودققت بها، وسررت للعقد المطبوع وخلوّه من الأغلاط، ولترتيبه. وكتبت فيه ثمناً مناسباً لواقع الحال، ووقّع الفريقان والشاهدان وتمّ إنجاز المعاملة. ولمّا هموا بالخروج ذكّرت المشتري أن لا ينسى أن يقدم لهم عند اللّحام مرطبات البيبسي مع سياخ اللحم المشوي، والميراندا الباردة. أجابني بأن المعلم محمد أبا فضل لحّام وشخص مذوق مثل - كاتب عدلنا -. ودعاني للقدوم معهم لتناول غذاء لذيذ من سياخ الكفتة، وشِقف لحم الغنم المشوية.

شكرته متمنيا لهم طعاماً لذيذاً وشهياً قائلاً: صحتين.

منذ مدّة، وقد مرّ أكثر من ثلاثين عاماً على الموضوع، قدِم الشاهدان ذاتهما اللذان شهدا على عقد بيع عقار ثمنه - كم سيخ لحم غنم مشوي - لإجراء معاملة، وسألاني إذا ما كنت أتذكر تلك المعاملة، فأخبرتهما بالإيجاب. أخبراني بأن البائعين كلهم والمشتري، أصحاب ذلك العقد قد ماتوا، ولم يبقَ منهم أحد. وأنهما تذكرا هذه الحادثة في سهرة البارحة عندما قررا المجيء، فأخبرتهما بأن بائع لحم الغنم محمد أبا فضل قد مات أيضاً. أسفا وترحما عليه كثيرا، وترحمنا على الجميع وذكرنا محاسنهم.

أصحابك هم زبائن مكتبك

لم يمضِ على بدء ممارستي المهنة سوى شهور قليلة، حتى حضرت الحاجة عيدة، وطلبت مني تنظيم تبليغ إنذارات بخصوص شقق سكنية ببنايتها لأشخاص مستأجرين، أعرفهم جيداً، معرفة قديمة، وأكن لهم الود والاحترام.

قلت لها: ولكن هؤلاء أصحابـي يا حاجّة.

ردت فوراً: كلا يا بني. بل أصحابك هم أهل البيت - بيت النبـي محمد (صلى الله عليه وسلم) - وزبائن مكتبك، قم بواجبك، وابقَ حيادياً في عملك.

وجدت كلامها مقبولاً، ومنطقياً بدعوتها للحيادية وأداء الواجب، ومريحاً. تجاوبت معها، ونظمت الإنذار المطلوب وتلوته عليها، ووقعت صاحبة العلاقة بوضع - بصمة باهمها الأيمن أعلاه لجهلها القراءة والكتابة - وصادقت عليه أصولاً. دفعت السيدة الرسم والأجور، وهي تقول: وأنا أيضاً جارة خالتك أم أحمد وصاحبتها، وأعرف أمك وزائراتها.

ثم استلمت المستندات وبصمت ثانية إقراراً بالاستلام على دفتر الذمة.

في اليوم التالي اتصل بـي - الكابتن - وهو قريب الحاجة عيدة، وأكد لي صحة منطقها، وبأن أصحاب الكاتب العدل هم زبائن مكتبه أولاً وكذلك كل صاحب مصلحة. وطلب مني مساعدة قريبته التي تجهل طرق العمل بالإدارات، ليصل التبليغ بسرعة لأصحاب العلاقة فوراً، ولا يضيع بالبريد أو الإهمال، فتضيع حقوقها. شكرته على ملاحظاته وثقته. وأكدت له أنني كذلك وأن كلامي عن الأصحاب هو من قبيل التلطف ورفع العتب عن نفسي، وأعامل كافة الناس بحيادية ومهنية، وقمت فعلاً بإرشادها، وشرحت لها المتوجب، وهي فعلت ما أشرت عليها به.

* * *

ترقى الكابتن لرتبة قومندان، وأُحيل على التقاعد بسبب معادلة الرتبة والسن المتبعة بالسلك العسكري. وانصرف إلى العمل الاجتماعي، والشأن العام، لا سيما في قريته رقنون والنواحي المجاورة. وقيل إنه يتهيأ للترشح للمجلس النيابـي، ويستعد لذلك.

لجأت الحاجة عيدة للقضاء لفض النزاع مع المستأجرين لشققها. وادّعت عليهم مطالبة بفسخ الإيجار بعد أن وكّلت محامياً قديراً.

وانتقلت الدعوى من قضاء لقضاء، ومن محكمة إلى محكمة درجة أعلى، ومرت بإجراءات معقدة من تقارير الخبراء وردها والمطالعات واللوائح.

وماتت الحاجة عيدة، ولم يصدر القرار النهائي. وأوصت أولادها عند موتها، بعدم التنازل عن حقهم.

ولم أعرف ماذا حدث بين ورثتها وخصومها.

وبدأت الدولة بإعادة نشاطاتها وواجباتها. وأجرت في ربيع العام 1998 أول انتخابات بلدية واختيارية منذ دورة العام 1963 المنصرمة.

وصار المرشحون للانتخابات البلدية والاختيارية يأتون إلى دائرة كتابة العدل لتسجيل تصريحاتهم بالترشح زرافات ووحداناً.

وجاء مرشحون من قرية رقنون مؤيدون للقومندان ومدعومون منه، إلى دائرتنا وسجلوا تصاريح الترشح للمجلس البلدي. وشكلوا لائحة متكاملة. ولم يكن في تلك القرية لائحة منافسة، أو أفراد مرشحون، سوى لائحة القومندان.

وجاء مرشحون غيرهم، وبقينا نعمل معظم النهار لكثرة المرشحين. وعملنا بحماس، وبجد ونشاط.

في يوم الأربعاء الأخير لتقديم طلبات الترشح، ظلت الدائرة تعمل كخلية نحل، حتى الساعة 12 عند منتصف الليل، بسبب كثرة المترشحين ولقرب الدائرة من السراي.

كان الموظفون في حالة من النشاط والرضى والقبول، لكثرة الشغل، وللأجور الإضافية من (over time)، والتي كانت جيدة، ولم يتذمروا أو يتأففوا.

ولكن الذي حدث هو أنه قبيل منتصف الليل بقليل، في الساعة الثانية عشرة إلا ربع ساعة، وصل أشخاص من قرية رقنون وسجلوا تصاريح ترشحهم بلائحة منافسة للائحة المدعومة من القومندان. وتم إنجاز المعاملات بسرعة، ووصلوا إلى السراي في دقيقين، وسجلوا طلبات الترشح قبل لحظات من انتهاء الموعد.

أثار ذلك حفيظة القومندان الذي اتصل صباحاً، عاتباً على تمديد موعد عمل الدائرة حتى نصف الليل! مما أدى لوجود لائحة منافسة. وماذا ضرّ لو تم التهرب منهم!

أجبت أن ذلك تم ضمن القانون. وذكرته بملاحظة قريبته المرحومة الحاجّة عيدة والقديمة منذ 18 عاماً والتي أيدها، عن الحيادية وبأن - أصحابك هم زبائن مكتبك -.

وقلت له بأننا سوف نداوم مرة ثانية حتى منتصف الليل عند آخر يوم لسحب التراشيح. فرد قائلاً: الله يستر.

فازت اللائحة المدعومة من القومندان بثلاث دورات متتالية.

منذ مدة مررت بقرية رقنون، وحزنت وأسفت للأوساخ المتراكمة، وللفوضى والإهمال التي بدت فيها. وسألت نفسي: ماذا فعل المجلس البلدي طيلة ثلاث دورات؟ وها هو يحقق فوزاً للمرة الرابعة..

جو انتخاب وجوه وعتاب

بالنسبة إلينا ككتاب عدل، جميع المرشحين للانتخابات الذين يصرحون أمامنا بترشحهم هم سواسية، ونبذل لهم ذات الخدمات. سواء الانتخابات النيابية منها، أم البلدية والاختيارية. بفعل عامل الحيادية التي يتوجب على الكاتب العدل التميز بها والتحلي والتقيد، وبفعل الاحترام للجميع، وللصداقة والعلاقات القائمة المبنية على الاحترام والمودة نحو الناس. بالرغم من أي اختلاف أو توافق مع هذا الشخص، أو ذاك.

تكاد فترة الترشح، والانسحاب من الترشح والرجوع، والتوكيل بتعيين مندوبين وتفويضهم، وحتى يوم الانتخاب أن تكون أهم أشغال الكاتب العدل في هذه الفترة. هناك عجقة شغل كثيرة، مثل التحضير للعرس، ومدخول مادي محترم، مع تعب ونشاط.

إن اللبنانيين بطبيعتهم مهذبون، ويعاملون الجميع بذوق واحترام، وهكذا المرشحون يأتون، ويخرجون برقي وتمدن.

يحضر المرشحون إلى دائرة كتابة العدل لتسجيل ترشحهم.

البعض واثق من نفسه. لأن الجهة التي باركت ترشيحه راضية عنه أو للإجماع عليه أو لأن عائلته كبيرة. وهو واثق من الفوز. وما عليه سوى التوقيع والتسجيل وينتهي الأمر وينجح ويسترد الكفالة المالية و- قيمتها نصف مليون ليرة - حوالى 330 دولاراً - للمخترة أو البلدية - فالمسألة شكلية عنده ليس إلا. والبعض القليل واثق بنفسه، لدرجة أنه يكاد أن يتكلم من رؤوس شفاهه طالباً الإسراع بإتمام معاملة الترشيح فهو مستعجل.

أما كفالة الترشح للنيابة فهو عدة ملايين أو آلاف الدولارات.

* * *

المرشحون يحضرون لتوقيع التصريح أمامنا ويغادرون دون تعليق وينتظرون دورهم، يوقعون، ويغادرون إلى السراي.

أحد الأشخاص صرح ذات مرة أنه يود الترشح لرئاسة البلدية، فأوضحت له أن الترشح يكون لعضوية المجاس البلدي، وبعد إعلان النتائج يجتمع المجلس الجديد فينتخب الرئيس ونائب الرئيس واللجان البلدية، فصار يهز رأسه علامة عدم الرضى.

حضر ذات دورة مرشح لمنصب مختار. ثم طلب تنظيم ترشيح لعضوية المجلس البلدي في ذات الوقت. استغربت تصرفه لأن عليه الاختيار بين ترشح مختار وترشح مجلس بلدي. رد بأنه يجرب أن يحظى بإحدى السلطتين.

عاد وطلب تنظيم رجوع عن كل ترشيح ليبقى أمامه المجال بالفوز بأحد المركزين بعد الانسحاب من الآخر.

* * *

بعض المرشحين لا يحضرون، بل يريدون أن نأخذ تواقيعهم في أماكن تواجدهم في البيت أو المكتب أو الدارة، والأسباب متنوعة. وعادة ما نرفض هكذا طلبات بما يتيسر لنا من لباقة ومسايرة وإن كنا نلبـي بعضها لأسباب اضطرارية.

* * *

يبقى النائب الأستاذ الجار والصديق عبد المجيد صالح أبو حسن ـ المتواضع أبو الفقير وأبو المريض ـ من الأشخاص الذين يحضرون من غير موعد أو تكلف، وينتظر دوره مثل الباقين رافضاً تفضيله على أحد.

ولما انشغلت معه ذات مرة من مرات الانتخابات، بمراجعة معاملة الترشيح والتدقيق بها، جاء أحد الأشخاص ولم يعجبه الانتظار فانزعج وخرج مغادراً. لم يعد الزبون إلى مكتبنا ثانية.

لم أعاتبه ولم أحاول أن أعتذر له أو أستوضح منه. ولم أعرف لماذا لم يتحمل الانتظار.

توفي الزبون. وعلمت أثناء تقديم التعزية به أن النائب الأستاذ عبد المجيد استمر بزيارته أثناء مرضه بشكل دائم. كان يحصل له على أدوية السرطان الغالية الثمن من وزارة الصحة مجاناً ويأتي له بها، ولم ينقطع عن زيارته أسبوعاً واحداً. أدركت كيف أن البعض يخطئ بمواقفه وبتقديره.

إسقاط مختار أو طائفية بالمقلوب

بعد إعلان نتائج انتخابات البلديات والمخاتير عام 1998 واستلام المخاتير الفائزين مهامهم وصلاحياتهم وأختامهم، وبدء أشغالهم حضر إلى دائرة كتابة العدل المختار جريس من الحي الكبير، وطلب تنظيم وكالة خاصة قضائية ومضمونها:

- أنا المختار من الحي الكبير جريس، قد وكلت المحامي الأستاذ X بالمرافعة والدفاع عني بالشكوى والدعوى الجزائية المقامة مني ضد المدعو أنطوان، بمادة شتم وسبّ وتهجم، ومحاولة ضرب أثناء العمل وبمناسبته، وما يتفرع عنها إلخ..

سألت المختار جريس فيما كنت أتلو عليه النص المكتوب: هل تنوي جاداً الادعاء على أنطوان؟

أجاب: وسوف أحبسه وأربيه، وأجعله عبرة، حتى لا يجرؤ أحد بالتطاول على المختار جريس والتهجم عليه، وعلى أي مختار.

كان ردي أن ذلك لا يناسب طبيعة المخاتير، ولا شخصية المختار جريس التصالحية، وصاحب السمعة الممتازة والطيبة عند الناس.

- وكيف تخاصم أنطوان، الإنسان الطيب المسالم، ولو أخطأ معك؟

ماذا سيقول عنك الناس في الحي الكبير، عندما تشتكي على ابن الحي وابن الطائفة؟

"الذي لا خير فيه لأهله فلا خير فيه لأحد"، سيقول الناس ويرددون.

تصوروا أن المختار جريس اشتكى على ابن طائفته وابن حيه! "بمجرد أن طلعت أظافره صار يخربش بها"، وسيقولون أشياء أخرى.

سأل: أليس هذا كلاماً طائفياً؟ أم أنه طائفية بالمقلوب!

- سوف تندم يا مختار، إذا ما دخل أنطوان السجن يوماً بسببك.

بدا مفكراً وشارداً. ثم سألني: هل أتنازل عن الشكوى؟

- سيكون تصرفك ذكياً. وأنت سلطة شعبية، فكن حكيماً وتصرف بطريقة أبوية.

وبدلاً من تنظيم وكالة قضائية، نظمت معاملة تنازل عن الشكوى، وإسقاطاً. وبعثت وراء أنطوان لاستلام الإسقاط، لتسليمه لمخفر الدرك لإنهاء النزاع.

حضر أنطوان مع والدته، واستغربا وتعجبا كيف أن المختار جريس رفض طلبات ووساطات سيادة المطرانين، والنائب الوزير والدكتور النائب، وغيرهم، ولم يتجاوب مع أحدٍ منهم، وتجاوب معي بسرعة!

أجبت: أنا لا أعرف لماذا لم يتجاوب من قبل مع أحد، ولكنني خاطبته بعفوية وبصدق وغيرة، بعيداً عن أسلوب التعالي والفوقية أو الأمر، وببساطة. والناس يدركون بعفويتهم من يحبهم، ويغار عليهم.

اليوم أعتبر تجاوب المختار جريس غداة أول انتخابات، بعد 18 عاماً من ممارستي مهنة كتابة العدل، أمراً هاماً وغالياً.

أتمنى للمختار جريس استمرار الفوز بالانتخابات، ليستمر بالخدمة، والعطاء لأبناء الحيّ الكبير وباقي الأحياء، والبلد.

أوراق الصانعة أو "العبدة"

أقبلت إلى مكتب دائرة كتابة العدل ذات صباح سيدة سمينة، عليها مسحة من جمال، ثرية من الأغنياء، ومن المعارف وزبائن المكتب.

مكحلة، مبودرة، محمرة، وتضع المناكير الحمراء الفاقعة على أظافرها. تتزين بالمصاغ من الحلق والخواتم والأساور المبرومة. وتبعتها وراءها بخطوات عاملتها المنزلية الأفريقية السمراء Mariamatou Camaro، الضعيفة النحيلة، ذات الشعر القصير الأجعد المبروم بدوائر وجدائل أفريقية. وكانت السيدة تتكلم بصوت أجش وواثق شبيه بصوت الممثلة المصرية الشهيرة زوزو نبيل، لما ألقت التحية، قائلة:

- أنا مستعجلة. اعملوا لي أوراق العبدة.

وتقصد هنا بالأوراق، تنظيم عقد عمل لعاملة الخدمة المنزلية.

قلت لها متصنعاً العبوس: سوف نسرع لك بتنظيم عقد العمل. ولكن لا يجوز أن ننادي على البنات العاملات بلقب عبدة. فلا عبيد هذه الأيام.

ردّت قائلة: كلنا عبيد الله. لا تكبِّر الموضوع، ولا تغضب.

أجبتها بأن الله على الرأس والعين. ولكن التعبير قاس على الفتاة، والأفارقة يمقتون كلمة - عبد أو عبدة - وهو غير مقبول من ستّ مجتمع، محترمة وطيبة مثلك.

قالت: طيب. أوراق الصانعة. الخادمة.. سمّها ما شئت، وكما تريد.

- حتّى هذه التعابير ممنوعة بنص القانون، وبنص عقد العمل، ومرفوضة بلفظها. وإلا فالحكومة سوف تردّ عقد العمل وترفضه. إذا لم تقم بتغريمنا.

- ماذا تريد مني أن أسميها، وأناديها؟ حسناً، هل أقول لها يا بنتي؟

- بالضبط. هذا هو المطلوب يا مدام، وهو المنصوص عنه بالأوراق والمعاملات. وأنت امرأة طيبة، وبنت بيت، وست محترمة.

المهم، نظمنا عقد العمل من ثلاث نسخ بسرعة. ووقعت العاملة الأفريقية الآنسة Mariamatou Camaro بخط يدها الذاتي. ووضعت السيدة الكبيرة بصمة باهمها الأيمن على صفحات العقد الثلاث لجهلها القراءة والكتابة. وكانت بصمة السيدة كبيرة، بحجم حبة الجوز، وتشبهها.

تذكرت العاملات القادمات من آخر الدنيا للعمل في بيوتنا. وأولادنا اللبنانيين المنتشرين في أرجاء الأرض للعمل والرزق.

"ASOKA بيت" أو بيت أسوكا

اسمها أسوكا، ومن سيرلانكا، وهي سيدة في أوائل الأربعينات من العمر. جاءت في بداية الألفية الثالثة للميلاد، وتحديداً في شهر نيسان سنة 2000، لتشتغل في لبنان عند الأهل في سبيل الرزق، وتركت بيتها وعائلتها. وكان الأهل يعاملونها بعاطفة ومحبة واحترام، وبشيء من الدلال.

وقد أثارت تلك الطريقة بالمعاملة حفيظة إحدى الجارات، لأنه لا يجوز رفع الكلفة مع هؤلاء البني آدميين أو تدليلهم، بل يجب استعمال الشِدّة معهم وتشغيلهم دوماً، وعند إنجاز الشغل يجب تشغيلهم من جديد، بأعمال يتم اختراعها حتى لا ينسوا أنهم خدم، أو فليبقوا في المطبخ، هكذا! ولما تراها تخاطبها بكلام هو بين المزاح والجد - يكويك على قلبك يا أسوكا -. يعاتبونها لذلك، ويدعونها للتحلي بالرأفة والبعد عن الأفكار الطبقية والعنصرية، فترد وتجيب: دمي لا يلحم على دمها ودم قبيلتها.

وتستمر تلك المجادلات من حين لآخر دون فائدة.

لما كنت أتهيأ عصر يوم للخروج من بيتي للعمل بالدوام الإضافي في المكتب الملحق ببيت الأهل، رنّ جرس الباب، فأسرعت وفتحته. وكانت صبية سيرلانكية تقف لاهثة من صعود الدرج، لتوقف المصعد بسبب انقطاع الكهرباء.

قلت في نفسي: جاءت بالتأكيد لأجل عقد عمل، وربة عملها في الأسفل تنتظر أو أنها تصعد الدرج. لا بأس. عقد العمل أجرته جيدة ويستحق المجهود. جاءت وجاءت الرزقة.

خاطبتني: هون Asoka بيت؟

أدركت فورا أنها تسأل عن بيت أسوكا، أي بيت أهلي، فكثير من الأشخاص عندنا في المنطقة يخلطون بين بيتي وبيت أهلي. ولا شك أن الأمر التبس على هذه الفتاة كذلك.

أجبتها بأنني ذاهب فوراً إلى Asoka بيت، ودعوتها لمرافقتي إلى هناك، وهبطنا الدرج، وعبرت معها درب الآثار، ووصلنا إلى بيت الأهل أو - Asoka بيت - في المقلب الآخر من الآثار. أدخلتها إلى غرفة الانتظار، سألت إخوتي هل أسوكا هنا في بيتها؟ ردّت أختي مهى: هي في جناحها مع صاحباتها وضيفاتها، اذهب وألقِ عليهن نظرة وتعال أخبرنا ماذا يفعلن. تقدمت وقدت الضيفة الجديدة إلى حيث كانت أسوكا بكامل زينتها تحتفل مع مواطناتها السيرلانكيات بعيد ميلادها، وقد تزينت الغرفة بالبالونات وأوراق الكرتون الملونة، وفي وسط الغرفة طاولة عليها قالب كاتو كبير، وبجانبه صحون النقولات والبيتي فور والمشروبات الغازية الباردة. قبلت الضيفة أسوكا، وصافحت الباقيات. وصدحت الموسيقى السيرلانكية الشبيهة بالموسيقى الهندية. تركتها مع أترابها، وغادرت مبتسماً.

اشتغلت أسوكا سنوات عديدة مع أهلي، وأخبرتني أختي أسامة أن زوج أسوكا ووالديها اشتروا لها في وطنها سيرلانكا بستاناً مساحته عشرون دونماً، مغروساً بأشجار فواكه تلك البلاد، وطلبت مني أن أبارك لها به.

سألتها عن حقيقة مساحة الأرض، فكتبت بالقلم على طرف ورقة مؤكدة: "20,000m، وهي مغروسة بأشجار banana - موز - coconut - جوز هند - وpineapple - أناناس -".

انتهى عقد عمل أسوكا بالأخير، وغادرت إلى بلادها، ومن هناك أرسلت صُوَرها مع زوجها وأولادها في بستانها بجانب بقرة منتفخة البطن، مع شريط CD، ذكرت فيه أن زوجها اشترى لها بقرة تدر حليباً كثيراً، وأن البقرة حبلى (حامل) وإن شاء الله تلد بنتاً - تقصد عجلة - فقالت أختي مهى: آمين.

سألت: هل أسوكا مسيحية؟ أراها في الصورة تعلق صليباً خشبياً برقبتها.

قالوا لي إن ذلك صحيح، وقد كنا نظن أنك تعرف ذلك.

لما سافرت إلى إسبانيا لزيارة أخي هشام هناك، صرت أتجول في قاعة المسافرين بمطار بيروت، وأنظر إلى الأشخاص المنتظرين بجانب حقائبهم أو الجالسين عليها، مررت بإحدى بوابات المطار بمجموعة نساء وصبايا سيرلانكيات متجمعات عند حقائبهن وجالسات عليها، بانتظار الطائرة. وإذا بواحدة منهن تتقدم صوبي ملقية التحية، وتسألني: هل عرفتني؟ أجبتها بأنني لا أذكر. صارت تذكر لي اسم المرأة والرجل اللذين اشتغلت عندهما، فلم أعرفهما. قالت لي: أنا Asoka بيت. أنت أخذتني بابا عندها مرة. ابتسمت وعرفتها. كانت تلك العاملة المنزلية التي دُعيت مرة لعيد ميلاد Asoka منذ سنوات وأوصلتها إلى بيت أسوكا أو - Asoka بيت - وهو بيت الأهل. ثم أتت مجموعة من الصبايا السيرلانكيات ملقيات عليّ التحيات والابتسامات، وبدا أنهن وقعن عقود عملهن في دائرتنا ذات يوم. ابتسمت لهن، وتمنيت لهن الوصول بالسلامة.

صار أخي هشام وزوجته وأولاده في إسبانيا يسألونني عن إخوتي وعن العائلة وأحوالهم، وأنا أروي لهم وأخبرهم. سألني أخي: من يساعد إخوتي بأشغال البيت وقد كبروا؟ أخبرته أن امرأة سيرلانكية اسمها أسوكا اشتغلت عندهم فترة، وجاءت بعدها بنت بنغلادشية اسمها سالينا ويطلقون عليها تحببا صفة مختارة البنات البنغلادشيات لوعيها وإرشاداتها لهن. وكلتاهما جيدتان أمينتان وطيبتان وجميلتان.

ردّت ماريّا امرأة أخي ضاحكة: ونحن هنا في مدريد اشتغلت عندنا في البيت بنت سيرلانكية اسمها أسوكا، وكانت جيدة وطيبة وجميلة، وبقيت تشتغل لسنوات عديدة ثم رجعت إلى بلادها، ولكن لم تشتغل عندنا بنت بنغلادشية اسمها سالينا.

ردّ أخي: الله يستر على هؤلاء الفتيات "الولايا" ويرزقهن. هن ملائكة رحمة، وخير من يساعدنا، ولسن من عبدات أمنا أو أبينا. علينا معاملتهن مثل أولادنا.

مهيب وأدعيته

I

عرفته منذ كنت صغيراً. هو ابن مدرستنا وأكبر مني وصفه أعلى من صفي. وبذات عُمر أخي بشر الأكبر مني بسنتين، ومن طلاب صفه. كان يزورنا دائماً في بيتنا، فيلعب ويأكل معنا. يرحب به الوالدان قائلين: أهلاً وسهلاً بك يا مهيب. نحن نحبك ونحترمك لأخلاقك ولاجتهادك بالدروس، الله يرضى عليك.

بدا دائماً ودوداً لطيفاً. اسمه مهيب سالم شداد. اسم الأم لمعات. مكان وتاريخ الولادة الصابرية 7 شباط/فبراير 1947. رقم السجل 60 الصابرية. هذه المعلومات سمعتها منه مراراً ومن أصدقائه بالصف. لكنه رفضها، لأن تاريخ الولادة فيها خطأ ولا يعود له، بل لأخيه مهيب المولود قبله والمتوفي صغيراً ابن شهرين، والذي لم تتم توفيته - تسجيل وفاته - بسجلات النفوس، لعدم ضم وثيقة وفاة. وقامت عائلته وأسمته باسم أخيه لما ولد. وهكذا حمل اسم أخيه الأكبر منه - مهيب - راضياً، وحمل تاريخ ولادته مظلوماً. فهو أصغر من هذا، وتاريخ ولادته الحقيقي هو 1 كانون الأول/ديسمبر 1948. كان يروي لأصدقائه من الصبيان والبنات ذلك، ويجادل أصحابه كثيراً في عُمره، وخاصة مع البنات اللاتي كنّ يغظنه منكرات روايته فيرد عليهن أنهن أكبر منه! أما الصبيان فينصحونه بعدم الخوض بموضوع العُمر. حتى لو كان ما يقوله صحيحا، لأن تصغير العُمر من صفات النساء والبنات، والحديث فيه والخوض، فيجيب بأنه لا يقوم بتصغير عُمرُه، بل يقول الصحيح. فالحقيقة هي أنه ولد في نهاية سنة 1948، لا في بداية عام 1947، ولا يكف عن شكواه، طالبا من الآخرين الاعتراف بعُمره الحقيقي وتصديقه.

كان مهيب يتزين بالذهب والمجوهرات. أهله كانوا من أغنياء أفريقيا وقد جمعوا ثروتهم من هناك. بلاك ذهبـي باليد اليمنى، وساعة باليسرى، وسلسال ذهبـي في رقبته، معلق به قلادة "ما شاء الله" وآية الكرسي وقلب ومفتاح من ذهب. وخواتمه مرصعة بالأحجار الثمينة. أما الحجاب المربوط تحت زنده لمنع - صيبة العين - وحمايته من الحسد فمن الجلد السميك الثمين.

يأتي إلى منزلنا ويأكل معنا، فيرحب به الأهل. ويرتاد تلك الحارة في عطلة الصيف وأيام الفرص المدرسية، ويمضي نهاراته مع أصحابه باللعب بين البيوت وفي الأزقة والطرقات، وعلى تلال الرمل. ولا يجد حرجا بالغداء مع أصحابه، ويدعوهم للأكل عنده، وكان كريماً.

كانت النساء تنتقد زينته، فالزينة للبنات لا للصبيان. ويحذرن أمه من احتمال تعرضه للخطف، أو الاغتصاب أو صيبة العين. ويقلن لها: الغنج والدلال يجعلان الولد الصبـي مخنثاً ومائعاً يا لمعات، فيصير مثل البسين المبرغث البليد(الهرّ المليء بالبراغيث وحشرات النَمَس).

فتردّ لمعات ضاحكة: كلا، ليس كذلك. هذا من حبـي له، وشفقتي عليه. أخوه الأكبر فارس يعمل بعيداً في أفريقيا، والصبـي يتيم. شربت قبله حسرة أخيه مهيب الذي مات رضيعاً وصار من طيور الجنّة، فقام أبوه سالم وأسماه مهيب محل أخيه حزناً عليه. أخاف أن أكسر خاطره، وأنا عهدت أمره إلى الله ووكلته به. لا تشغلن بالكن على تربيته ونشاطه، والصبـي قوي وواعٍ، فلا تخفن عليه. الله هو الكفيل.

كان مهيب ناجحاً في دروسه ومجدا. تابع تحصيله الجامعي وعاد من جامعة أوكسفورد ببريطانيا حاملاً إجازة في طب الأطفال. ووجد التعامل مع الصغار أسهل له من الكبار. أسس له عيادة بشارع الحمرا في بيروت، وعمل محاضراً بالجامعة الأميركية براتب عالٍ، بعد أن حصل على شهادة الدكتوراه بدرجة جيد جداً.

عاد ليعمل في بلاده بعد أن خفف من الذهب والمجوهرات التي يتزين بها، لتقتصر على - بلاك - ذهبـي واحد رقيق، وساعة يد وخاتم صغير بخنصره الأيمن. ظل مهيب مخلصاً لأصدقائه، يكثر من زيارة مدينته وقريته ومعارفه. وبقي متواضعاً، وعلى صلة حسنة بالناس. لم يغير عاداته، وكان يغضب إذا ما مازحه أحد فسأله عن عُمره الحقيقي. يعود ويشرح خطأ قيود سجلات النفوس القديمة الظالمة لما أعطوه تاريخ ميلاد أخيه، مؤكدا بثقة وذاكراً أسماء الأشخاص الكبار الذين

يعرفون الحقيقة، ويشهدون على تلك الغلطة، معرباً عن استعداده لاصطحاب من لا يصدق كلامه إلى جبانة الموتى، ليريه قبر أخيه الطفل مهيب المتوفي باكراً الذي صار ملاكاً صغيراً من ملائكة الجنّة، الذي كان جميلاً ومن أجمل الأطفال، وحتى أجمل منه، المدون اسمه وتاريخ ولادته ووفاته على بلاطة القبر. وبأنه فكر بإقامة دعوى أحوال شخصية كما نصحه محامون كبار، لتصحيح تاريخ الولادة، وتردد وصرف النظر بعد أن فكر بالإزعاج الذي سيتسبب به ذلك التصحيح، بالشهادات والسجلات والقيود، فيأسف لظلم الحظ.

نصحوه بالزواج لينجب ولداً يفرح به ويربيه، وكي لا يبقى وحيداً، لأن الوحدة مكروهة. فيجيب بأن أولاد أخيه المرحوم فارس هم أولاده، فهو رباهم ودلّلهم. وأنه مرتاح هكذا بدون زواج، وبخصوص الوحدة فالله هو الحامي. بقي أعزب، لم يتزوج رغم كل النصائح التي لم يتجاوب مع أي منها.

II

كان مهيب ينظم في دائرتنا وكالة خاصة لمكتب محاسبة لتمثيله أمام المالية بخصوص ضريبة الدخل والقيمة على الضريبة المضافة، لما سألني الموظف قريبي حسين عرب بصوت منخفض: يقول الدكتور إنك تعرفه، وقد جاء من دون بطاقة هوية، ولا يحمل إلا بطاقة نقابة الأطباء. ماذا أتصرف؟

أجبته: أكتب مع المصادقة. الدكتور مهيب سالم شداد. اللبناني الجنسية. الأم لمعات. مكان وتاريخ الولادة الصابرية 1947. رقم السجل 60 الصابرية. الحائز الأهلية المدنية القانونية. المعروف مني شخصياً.

تم تنظيم الوكالة. وبعد تلاوتها وقّعَ الدكتور. تمت المصادقة وجرى تسليم المعاملة ودفع الرسم. تقدم مني يبتسم، قائلاً:

- أنت مهضوم كثيراً وخفيف الدم! لم تتغير. ما زلت تذكر أن اسم أمي هو لمعات، وتعرف كذلك تاريخ ولادتي! لكنني مولود في 1 كانون الأول/ديسمبر 1948 ولم أُولد في بداية 1947. أنا أصغر من أخيك بشر بأيام، وأنت أصغر منا بسنتين، وأنت تعرف ذلك. وتدرك أن تلك القيود تعود لشقيقي المولود قبلي المرحوم مهيب، ولا تعود لي، وأخي المرحوم فارس أكبر مني بعشر سنوات. على كل حال أنت تكتب ما هو مقيد بالسجلات الرسمية ليس إلا. أنا أعذرك، فتلك ليست مسؤوليتك أو غلطتك.

أجبته: كل طلاب مدرسة تلك الأيام يعرفون ذلك، ويحفظونه غيباً عن ظهر قلب مثل دروس الاستظهار وجداول الضرب، ولكنك ما زلت كما أنت يا صديق أخي ويا صديقي تتكلم بالأعمار وتبحث وتجادل. لم تتغير وكأنك تلميذ صغير بالصف، ولم تصبح طبيباً كبيراً وأستاذاً جامعياً شهيراً. وكأننا لم نكبر.

قال: وأنت لم تتغير، تتحدث كعادتك بصراحة، ولطف وبكلام جميل، الله يبعث لك الهنا والسعد، ويخليك. سلمت يداك. على فكرة، الله يستجيب دعائي مثل المشايخ والخوارنة والأرامل، وحتى أكثر، فقلبـي طيب. تسلم لي عيناك.

كان في المكتب حينها شيخ معمّم ينظم معاملة مع تاجر. تبسّم رجل الدين. أما التاجر فقال لدى مغادرة مهيب "صبر جميل وأجر عظيم".

بعد فترة، كنت أنظم لمهيب عقد بيع ممسوح لبستان العائلة المسمى - المطحنة - بالأصالة عن نفسه وبالوكالة عن أولاد أخيه الراحل فارس، لملاّك اسمه فيصل. لدى إتمام معاملة عقد البيع الممسوح، سألته عن مقدار الثمن، فرد بأنه (3.009.000 دولار)، وقبض منه مليون دولار أميركي، وسيقبض الآن مليونين وتسعة آلاف دولاراً أميركياً. تطور الجدل والنقاش بين مهيب والمشتري فيصل، الذي دفع مليوني دولار ورفض دفع التسعة آلاف دولاراً المتبقية، لأنه اقتطعها ودفعها ضرائب مالية متوجبة على عقار المطحنة. غضب مهيب واعتبر نفسه غير مسؤول عن ذلك التصرف، فهو لم يفوض المشتري فيصل ليدفع شيئاً. ولو عرف بذلك لفسخ العقد ورد الثمن ودفع البند الجزائي. صار يدعو على المشتري:

- اقتطعت مني التسعة آلاف دون إذني وسؤالي، يا ويلك من الله. بستان المطحنة يساوي ملايين الدولارات! الله يقطعك. ليته يتم تقطيعك بالسكاكين، وتُرمى شقفا تأكلك الكلاب. الطاحونة الأثرية الحجرية وحدها التي عمرها ثلاثة آلاف عام تساوي أكثر من ثلاثة ملايين دولار أميركي. أنا راعيتك بالسعر. أنا إنسان طاهر بريء وقلبي طيب. لا أعتدي على مخلوق ولا أسرق مثلك أو أحتال. أولاد أخي المرحوم فارس أحق بالتسعة آلاف دولار منك ومن جشعك.

ووقّع إمضاءه غاضباً متابعاً دعاءه: حِمّى تسلقك. الله يخفيك، ولا يوفقك.

بعد سنوات وفيما كنت أسير مع أصدقاء في الجبانة (تربة الموتى أو المدفنة) في قرية الصابرية لتشييع والدة صديق، مررنا بجانب قبرين، صغير وكبير متلاصقين. قرأت على بلاطة القبر الصغير" روضة الطفل مهيب سالم شداد. تاريخ الولادة 7 شباط/فبراير 1947. تاريخ الوفاة 7 نيسان/أبريل 1947"، وبجانبه قرأت على بلاطة القبر الكبير "بسم الله الرّحمن الرحيم **... وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا...** الفاتحة. روضة فقيد العلم والطب الدكتور المظلوم المغدور مهيب سالم شداد. مواليد 1 كانون الأول/ديسمبر 1948. تاريخ الوفاة 15 شباط/فبراير 2009". فوجئت وصُدمت وذُهلت، وشعرت بحزن وأسى كبيرين. لم أكن أعلم. سألت عما جرى له؟ فعلمت أن الدكتور مهيب تعرض لمأساة فظيعة وجريمة مروعة. وجدوه عند الصباح مقتولاً ليلاً في شقته ببيروت، وملقى على الأرض مضرجاً بدمه، وقد تم طعنه بصدره ورقبته وبطنه بسكين حاد، وجرى تشطيبه، وتمت سرقة منزله والاستيلاء على قسم من ذهبه ومجوهراته، التي وجدوا بعضها مبعثراً على الأرض.

قام أولاد أخيه الكبير والوحيد فارس بالشكوى والإدعاء بحق مجهول. لم يتم التعرف إلى الفاعل، أو معرفة أسرار الجريمة وتفاصيلها، وبقيت لغزاً.

رثاه أولاد أخيه فارس وبكوه: عمنا مهيب، يا مظلوم. كنت طيباً وحنوناً. كنت لنا أباً بعد وفاة أبينا. حقك سيظهر ولن يضيع. نحن وكلنا به الله وتركناه عنده، وسوف يحاسب قاتلك يوم القيامة غداً، إن لم يكن اليوم، وسينتقم لك ولكل مظلوم. ربيتنا صغاراً وأنفقت علينا وأعطيتنا. عشت وحيداً ومتّ وحيداً، وأسفاه. غادرتنا باكراً ومظلوماً. رحلت ورحل سرك معك. وبقي ما جرى معك لغزاً محيراً.

المتحول جنسياً والتوكيل

دخل كلب صغير إلى المكتب. وبمجرد أن تلاقت عيوننا بدأ ينبح بصوت عالٍ ومزعج. كان مربوطاً بطوق جلدي وجنزير بيد شخص طويل ونحيف، شعره مجدول. سار الشخص جاراً الكلب الذي توقف عن النباح. كانت تلك المرة الوحيدة التي استقبلت فيها كلباً بالدائرة، بينما جاءت عدة بنات صغيرات مع أمهاتهن يحملن قططهن. أثار نباح الكلب تعجب الجيران في المكاتب المجاورة وفضولهم. تجمعوا لمعرفة السبب، وصاروا ينظرون إلى الكلب وصاحبه، ثم يخرجون متعجبين مبتسمين.

لم أعرف من كلام الشخص أهو رجل أم امرأة! الصوت والوجه والصدر والحركات كانت غير واضحة الانتماء، - وبين بين -.

عرفت من الشخص، بأن الاسم هو فؤاد، وعرفت اسم الأب والأم والشهرة. وأما الاسم الجديد فهو "فؤادة" بعد التأنيث، وقد أُجريت للشخص عملية تحويل جنس جراحية بفرنسا، تحول بموجبها من شخص ذكر إلى شخص أنثى. والغاية من الحضور هي التنازل عن عقار ووقفه ليتحول إلى عقار وقف خيري.

استلمت سند التمليك وقرأت المعلومات المتعلقة بالعقار: رقم العقار: 10، اسم المحلة: درب العين، المنطقة العقارية: شحرورية، النوع الشرعي: ملك، المساحة: 5.000 م. م، اسم المالك والحصة. وأما المالك فهو فؤاد ونسبة ملكيته هي 2400/2400 من السهام، أي كامل العقار. واطلعت على بيان القيد الإفرادي - كان معظم اللبنانيين وقتها لا يحملون بطاقات هوية أو لا يبرزونها، بل يحتفظون بها في بيوتهم حتى لا تضيع، ويعرّفون عن أنفسهم ببيانات القيد وعليها

الرسم الشخصي - وقرأت كل البيانات الواردة: اسم الأب والأم والشهرة، مكان وتاريخ الولادة، محل الإقامة ورقم السجل. وفي أسفل البيان عند الملاحظات تم تدوين عبارة: تحويل الجنس من ذكر إلى أنثى بموجب إحالة الداخلية وبجانبها الرقم والتاريخ. أي أن فؤاد قد تحول قانونياً من ذكر إلى أنثى، وكما تغير نتيجة الجراحة من رجل إلى امرأة، وتغير الصوت فصار مثل صوت النساء مع خشونة واضحة، والصدر أكثر تكوراً ولكن أصغر من صدر المرأة، وشعر الوجه واليدين بدا واضحاً، ولكن أقصر من شعر الرجال. الذي لم يتغير هو الاسم الذي ظل في سجلات النفوس - فؤاد - ودون تعديل.

شرح لي فؤاد بعضاً من شخصيته المأساوية، ومعاناته في الحياة. كان في الغرفة عدد من الأشخاص الذين أنصتوا من دون تعليق وآخرون كانوا منشغلين بمعاملاتهم. وبأنه يشعر الآن/أو تشعر بالارتياح وبالحرية ومن دون حاجة لأي تمثيل. وإن يكن هناك بعض المنغصات من الناس عند الالتقاء بهم أول مرة، وبأنه لا يستطيع أن يغير نظرة الناس لهكذا شخصيات ولا طريقة تعاملهم. المهم أن الرغبة هي تحويل عقاره من النوع الملك إلى عقار موقوف في البلد:

- أرغب أن يتذكرني الناس بعدما أموت ويترحموا عليّ، وأن يهدوا لروحي الفاتحة. رفضوا بالمحكمة الشرعية حضوري لأنني ارتكبت إثماً أو خطيئة وخطأً بتغيير خلقة الله، وأنه لا يجوز مثولي أمام قاضي الشرع من غير حجاب بعدما أصبحت أنثى، والقاضي لا يستطيع أن يجزم بأهليتي الشرعية كما أجاب. فأشار عليّ شيخ صديق هو الشيخ جميل أن أنظم له وكالة بالخصوص لأجل وقف العقار لبناء مدرسة، ونادٍ لكبار السن يمارسون فيه نشاطات بسيطة وبعض التسليات، ويكون أشبه بفواييه ومركز لقاء وثقافة، ويرى الشيخ أنه لا يجوز منع عمل الخير، أو الارتياب كما في الآية **مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ**. وأنا ارتحت لكلامه. فهل ذلك صحيح ووارد؟ وهل يحق للقضاء الشرعي أن يشك بأهليتي؟

أجبت بأن مسألة تحديد مقدار حصة الشخص الإرثية المتحول جنسياً هي موضع خلاف وجدل فقهي وشرعي قديم. لكن التحول لا يفقد الأهلية، ولا يبطل التصرفات القانونية، مثل الشخص الشَكَر والشخص الخُنثى، وكذلك الأشخاص الحائرين بتحديد جنسهم وميولهم. ولا يجوز اعتبارهم فاقدي الأهلية إلا في حالات الجنون والسفه وفقدان العقل مثل غيرهم، ولكن هذا ليس موضوعنا. أما وضع الحجاب فلا أوافق على إرغام النساء عليه سواء الطبيعيات أو المتحولين جنسياً، وإن يكن

ارتداء الحجاب في المحاكم الشرعية وأمام رجال الدين عُرف فيه احترام لرجل الدين وقيمته. ومسألة تنظيم وكالة أمر صحيح وطبيعي، ينتج عملاً قانونياً سليماً لا يجوز لأحد التذرع ببطلانه أو بنقضه. إن الحالة هنا نادرة ومحيرة، فقد يكون القاضي متردداً بقبول سماع إنشاء الوقفية ومحرجاً بسبب عملية التحويل، أكثر من الالتباس بالأهلية لشعوره بالحياء، فيجب المراعاة وتفهم الدوافع وموقع الأشخاص.

تعهدت له أن تكون الوكالة واضحة سليمة وتستعمل للغاية المخصصة لها فقط.

وبعد موافقة فؤاد أو فؤادة، وكنت متحيراً بالصياغة اللغوية لجهة نص الوكالة، ومتردداً باستعمال صفة الجنس، وحتى لا يسبب إشكالاً عند التنفيذ، وليأتي النص صحيحاً، وبالحد الأدنى من الإشارة إلى جنس الشخص الغائب "لغوياً"، صاحب التوكيل، كتبت بصيغة ضمير (المتكلم - الغائب) معاً:

- توكيل خاص من فؤاد، اسم الأب فلان والأم فلانة والشهرة كذا، من الجنسية اللبنانية، مكان وتاريخ الولادة شحرورية 1946 محل الإقامة ورقم السجل شحرورية 37، الجنس: تحويل من ذكر إلى أنثى، وفقاً لبيان القيد الإفرادي الملصق عليه الرسم الشخصي.

- قد وكلت وأنا بكامل حريتي وإرادتي وبكامل الأوصاف الشرعية والقانونبة وبموجب هذا السند فضيلة الشيخ جميل من قرية شحرورية، بالقيام مقامي لجهة إنشاء وقف خيري على العقار خاصتي رقم 10 منطقة شحرورية، وتخصيصه مدرسة رسمية ومركزاً مجّانياً لكبار السن رجالاً ونساءً للتسلية والنشاطات، بشرط وضع بلاطة رخامية بارزة فوق المدخل الرئيسي للنادي عند وفاتي، يكون محفوراً عليها أن المتبرع هو فؤاد. وأجزت للوكيل المذكور كافة التصرفات القولية والفعلية وذِكر المصطلحات الشرعية، ولفظ إنشاء الوقف بكامل العقار ونطقه وتأكيده، وتوقيع المعاملات وصك الوقفية والحِجّة الشرعية وتمثيلي أمام القضاء الشرعي والسلطات الإدارية والسجل العقاري وأجزت له التوقيع والإبراء والإسقاط والتنازل وتخليص أية معاملة لهذه الغاية.

- التوقيع: فؤاد. مصادقة الكاتب العدل بعد تلاوة النص وتفهيم وشرح محتوياته لصاحب العلاقة، وتمتع المقر بالأهلية المدنية القانونية، وذلك في اليوم والتاريخ الذي جرت فيه المعاملة. مصادقة الكاتب العدل مع الخاتم الرسمي والطابع وبيان الرسوم.

وقع/ت فؤاد/ة، وشكرني/شكرتني واعتذر/ت عن إدخال الكلب ونباحه، وأعرب/ت لي عن شعوره/ها بالارتياح لإنجاز أمر يدخل البهجة على قلبه/قلبها والذي يرضي رب العِباد والعِباد. وقال/قالت:

- أريد أن يبقى ذكر فؤاد حياً في نفوس أهل بلدي. أنا لا أنجب أولاداً ولا ألد، لا عندما كنت ذكراً، ولا عندما صرت أنثى وكلنا راحلون. المهم أن نترك أثراً طيباً. فؤاد الذي أتكلم عنه رحل وغاب بعملية التحول الجنسي بعد أن عانى وتعذب، وأتمنى أن يبقى له ذِكر طيب بين الناس، وأما فؤادة فلن يذكرها أحد لأنها شخص آخر جاءت رغماً عن المجتمع وسوف يطويها النسيان، وفؤادة شخصة (تأنيث شخص - تعبير عامّي) أتت واستفزت المجتمع، واعتبرها الجميع تحدياً لهم ولإرادة الخالق!. لكن أهل قريتي شحرورية والقرى المجاورة يبدون لي العطف والاحترام.

وعلمت لاحقاً أن الوقف قد أُنشئ بقرية شحرورية من دون عراقيل، وتم تسجيله بموجب الوكالة، حسب الأصول، وبعدها نسيت كل ذلك.

بعد سنين عديدة، كنت أمرّ في إحدى القرى فقرأت كلمات محفورة بخط كبير على بلاطة في أعلى مدخل بناء جميل وكبير، محاط بالأشجار والزهور والورود:

"الفاتحة"

تمت "وقفية" أرض

"نادي الجدّ والجدة" هذا

والمدرسة الرسمية الملاصقة،

من المحسن فؤاد يوسف خشون،

رحمه الله، ووالديه وموتاه.

قرأت سورة الفاتحة وأهديتها لروحه وروح والديه وموتاه. وسألني صديقي إبراهيم، فيما كنت أشغل محرك السيارة: ألا يكون فؤاد خشون هذا المدون اسمه على بلاطة "نادي الجدّ والجدة"، هو ذاته فؤاد المتحول جنسياً أو - فؤادة - الذي جاءنا يوماً جاراً كلباً صغيراً، ونظم وكالة بالخصوص؟ فعلاً، لقد نسيت اسم القرية وأما أنت فذاكرتك جيدة.

أجبته: أظن ذلك. بالأغلب إنه هو.

كيد النساء "عظيم"!

يعمل رشيد منذ قدومه للمدينة منذ أواخر السبعينيات سائقاً على سيارة تاكسي عمومية يملكها. رفض السكن في قريته فيروزة، واشترى له منزلاً مفرزاً ضمن بناء، بضاحية قريبة، وسجله على اسمه بسند ملكية. هو أمّي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ويضع بصمة باهمه الضخمة على الورق.

كانت أموره تسير بشكل عادي وطبيعي، وحياته عادية، حتى اغتصب جارته التي تسكن فوقه، كما ورد في تقرير قوى الأمن الداخلي:

- قام رشيد صباحاً بطرق باب جارته الطبيبة الكرواتية الأصل الجميلة الشابة طرقاً خفيفاً، بعد أن غادر زوجها للعمل والأولاد للمدرسة، وأخبرها بأنه جرح إصبعه وطلب أن تضمده له بالشاش الأبيض والدواء الأحمر. هونت الدكتورة عليه الأمر، وسارت إلى صيدلية البيت الصغيرة لإحضار ما يلزم، فقام رشيد وأقفل الباب الخارجي بالمفتاح المعلق من الداخل وبهدوء، وهجم على جارته التي كانت تحمل أدوات التضميد. تفاجأت، ولم تعرف ماذا تفعل وكيف تتصرف. قام وأمسكها، وأغلق فمها بيده الكبيرة وكادت أن تختنق، ودفعها لغرفة النوم وهناك دفعها للفراش وجردها من ثيابها، واعتدى عليها. كانت بحالة من الخوف والذهول والضعف، وكأنه جرى تخديرها وكانت عاجزة عن الدفاع عن نفسها، والرعب يسيطر عليها.

اغتصبها وغادر البيت، بعد أن فتح الباب وردّه. وبقيت مذهولة خائفة. ثم اتصلت بزوجها هاتفياً: احضر حالاً.

أخبرته وهي تشهق باكية باعتداء الجار، وتقول له: طلقني وابعثني إلى أهلي. لم أستطع أن أحفظ لك شرفك وكرامتك. وانتابتها موجة من الخوف والذعر بشكل هستيري. لم يترددا بعد وقت من التوجه لمخفر الدرك، واشتكيا على جارهما رشيد بتهمة الاغتصاب، أقر رشيد بفعلته ولم يستطع الإنكار، وتم توقيفه وادعت عليه النيابة العامة الاستئنافية.

بعد شهور قدِمت زوجته سعاد إلى مكتبنا طالبة تنظيم وكالة عامة شاملة مطلقة من زوجها الموقوف في السجن بانتظار محاكمته، وقد استحصلت على موافقة المحامي العام الاستئنافي على ذلك. وانطلقنا سوياً إلى السجن، وعرضت المستندات على الضابط رئيس السجن الذي ألقى نظرة سريعة موافقاً، وأوعز إلى أحد العناصر من الدرك أن يسهل لنا دخول مكان التوقيف لمقابلة رشيد حتى يوقع بعد تلاوة النص عليه، وليشهد رئيس السجن عليه.

ألقت سعاد التحية على زوجها الذي بقي بعيداً في الزاوية، ولم يخطُ خطوة واحدة نحوها، وبقي ساكتاً ولم يتكلم.

سألته زوجته وبشيء من الغنج والدلال وعبارات الشوق والحب عن سبب عدم ترحيبه بها: ألم تشتق لي يا حبيبـي، يا رشيد؟ بقي ساكتاً، ثم نطق:

- ألم تقولي يا سعاد أمام الناس إنك لن تري وجهي بعد اليوم ولن تتكلمي معي؟

ردّت بسرعة: بل قلت إنني لن أزورك وأنظر إليك وأتطلع إلى وجهك إلا بعد أن ينبت لك شارب جديد بدلا من شاربك الجميل الذي حلقوه لك عندما قصوا شعر رأسك.

تقدمت منه وقبلته بشفتيه، ومدت يديها معانقة.

خرجت إلى غرفة مجاورة، وتركتهما. بعد دقائق دُعيت للدخول، ووضع رشيد بصمة باهمه بعد أن شرحت له مضمون الوكالة وأعلن رضاه وقبوله. غادرت إلى مكتبـي سابقاً الزوجة التي بقيت مع زوجها، ثم أتت إلى المكتب واستلمت التوكيل.

أمضى رشيد مدّة محكوميته، متنقلاً من سجن إلى آخر، وزار أماكن متعددة من السجون. ثم حضر بعد تخلية سبيله وقد مرت سنوات، إلى دائرتنا لتنظيم وكالة شراء سيارة عمومية بدلاً من السيارة القديمة التي باعتها الست سعاد، وباعت شقة البيت مثلما اتفقا لأنه لم "يعد عندهم عين

ليحطّوها بعيون الجيران"، ولم تكتفِ بذلك، بل أخذت كل النقود وحصلت على حكم شرعي بالطلاق، وطلقته، وهاجرت مع جميع أولادها إلى السويد ولم تعطه قرشاً واحداً، وهكذا ضحكت عليه واستغفلته وغدرت به. وهو لا يعرف عنها شيئاً ولا عن الأولاد. أخذوا كل شيء وهربوا، وأصبح من دون شيء "يد من قدّام ويد من ورا"، وأنه لولا الأجاويد أولاد الحلال من قريته فيروزة، الذين تبرعوا له بثمن سيارة عمومية ليشتغل عليها وليضمن نفسه بصندوق الضمان، مع ابنة الحلال الأرملة التي تزوجها، لكان الآن يتسول في الشوارع والطرقات ويشحذ "من مال الله يا محسنين". وقال بأن زوجته الجديدة أسكنته معها في بيتها الذي خرج بنصيبها من ميراث أبيها. وعاد يهاجم سعاد التي نتفت له ريشه، متبعا كلامه بشتيمة مقذعة، وسألني: ألم تقرأ المكتوب في القرآن عن النساء بأن جنس النساء "كيدهن عظيم" وقد نزلت - صورة - بالقرآن ببنات حواء، وقام الممثل المصري الشهير وحش الشاشة فريد شوقي بتمثيل ذلك في مسلسل تلفزيوني.

أجبته مصححاً بأنه يقصد القول بأن ذلك ورد في إحدى آيات سورة يوسف من القرآن، وليس - صورة -. فهز رأسه موافقاً، فيما كان يضع بصمة باهم إصبعه الأيمن الكبير الذي بحجم فتحة فنجان القهوة العربـي، ويقول: صحيح، وعلى رأي فريد شوقي فكيد النساء أقوى من كيد الشيطان.

أما جارته الطبيبة الحسناء الكرواتية الرقيقة الجميلة التي اعتدى عليها، فقد مرّت بحالة نفسية وعصبية صعبة، اضطر معها زوجها لأخذها إلى بلدها الأصلي كرواتيا، وسافرا مع الأولاد، وكانت هناك ترتاد عيادة للطب النفسي، وكانت جمعيات وطنية من المهتمين بمعالجة حالات المعتدى عليهن جنسياً والمغتصبات تقوم بزيارتها وبمساعدتها وإعادة تأهليها للحياة، ونسيان ما حصل وتجاوز ما مر وعدم الوقوف عنده، وسافرت العائلة كلها لاحقاً إلى كندا، واستقروا هناك.

حتى لا يرث السوريون!

جاءت يوماً إلى دائرتنا امرأة لا أعرفها، وبصحبتها رجل مسن يجره شاب بيده. وبدا المنظر غريباً مريباً، وخلفهما رجلان، لا أذكر أنني رأيت أحداً منهم. أو جاء من قبل إلى مكتبـي. جلسوا من دون استئذان ودون إلقاء التحية. أثار منظر الرجل الكبير وأحد الرجلين الشك والحذر في نفسي.

سألتهم عن طلبهم فقام أحد الرجلين، وأبرز سند تمليك لعقار ضمنه بناء في بيروت لشخص سوري، قائلاً:

- نريد تنظيم عقد بيع ممسوح من العم (الرجل الكبير) السوري لهذا الشّاب اللبناني، الذي هو قاروطه (ابن زوجته) والحاضرة أمه هنا معنا. هذه المرأة هي من شيدت البناية على العقار من مالها الخاص، ولم يضع السوري قرشاً. وصرفت نقودها على زوجها الجديد وساعدت قواريطها (أولاد زوجها) السوريين ولم تفرق بين لبناني وسوري. اشترت العقار منه ودفعت الثمن، ولم تقم بتسجيله على اسمها حتى لا تدفع رسوم الفراغ، وكانت ترغب ببيعه ولما لم يأتِ أي مشترٍ، رغبت أن تسجله باسم ابنها الوحيد، حتى لا يرث السوريون. نحن نعرف أنك تساعد المظلومين وتنصرهم. ونحن من زبائنك؟

كان يتكلم بدون إلقاء بال للرجل السوري الكبير الجالس، وبدون أن يسأله أحد شيئاً أو يطلب منه الكلام. والزوجة تهز رأسها مؤيدة.

انزعجت من خطابه، واسترساله بالكلام، ونزعته العنصرية نحو السوريين.

وإن شعرت ببعض العطف مع المرأة التي بدت لي شبيهة بأمي بنحافتها وبياض لونها ووجهها المتجعد ونقاب رأسها الأبيض. قالت، وهي تذرف الدمع: ما يقوله صحيح يا بني. الله يخلي

لك أولادك ولا يرميك بشدّة.

تذكرت صوت أمي وكلماتها. جربت أن أتكلم مع الرجل الكبير، الذي كان يسمع كلامي، شاخصاً لي من دون أن يبدو عليه أنه يتابعني. كانت عيناه متجهتين لجهة ما في الأمام. كان تجاوبه بطيئاً ونطقه قليلاً. ويجيب بشكل جزئي متقطع ولا ترابط بكلامه. اقترحت الزوجة عليه أن يجرب كتابة اسمه على ورقة لأتأكد من وعيه. فأمسك القلم وصار يكتب اسمه صعوداً ونزولاً.

كان بياض عينيه يميل للأصفر.

قلت: لن أنظم العقد، ولن أكتب المعاملة فالرجل ليس بالوضع المناسب.

صار المرافق الذي تكلم بالأول يقنعني بأن الرجل بكامل عقله ووعيه، وسيضمون تقريراً طبياً شرعياً يثبت وعي الزلمي (الرجل). وصار يلقي محاضرة بالإنسانية والوطنية والحقوق الشرعية. وسألني: لماذا لا نتعاون حتى لا يذهب العقار لغير أهله. فلا يرث السوريون الذين لا يملكون حقاً. هل نعطي السوريين أو نخدم الحق؟

كان الناس مستائين من نفوذ الحكم السوري بلبنان، ومن السوريين العاديين.

تذكرت شخصية المتحدث. إنه تاجر سيارات معروف، باع منها الكثير بموجب وكالات بيع كان يحملها معه بشنطته بعد أن يوقعها على بياض عند بعض كتّاب العدل، ويبعثها على بياض مع المشتري، ليملأها الكاتب العدل ويصادق عليها. رفضت هذا الأسلوب الذي أثار حنقي. وكنت أغتاظ أكثر من الكتّاب العدل الذين يمرّرون تلك الأساليب. بدا الرجل لي مقيتاً، ولو أنه يكثر من التلطف والمجاملة.

"جفل" قلبـي من حماسته وغيرته، وأحسست بنخسة. لم أتمكن من تحديد ماهية الخطر من بين كلماته. خشيت الوقوع باحتياله. خفت منهم ومن إصرارهم، وسعيت أن لا أجادلهم. أخفيت مشاعري لأسيطر على مظهري. قلت:

- اعفوني. أنا أعتذر. رجاء اذهبوا إلى كاتب عدل غيري. لن أقول شيئاً.

غادر الجميع، وشعرت بخطأ بطريقة الردّ، وكانوا قد ابتعدوا ونسيت الأمر.

بعد سنتين أقيمت دعوى على أحد كتّاب العدل أو كاتبات العدل! بجرم تزوير عقد بيع ممسوح لنقل ملكية بناية في بيروت من رجل سوري فاقد الأهلية بحضور زوجته اللبنانية، لابنها اللبناني، ونقلها بصورة غير شرعية.

تم توقيف الكاتب العدل أو الكاتبة العدل، فترة من الوقت، لأن الكاتب/الكاتبة العدل على معرفة بالشخص السوري. أصرّ على براءته، ولكنه قام ودفع مبلغاً من المال للمرأة وابنها، وقام بإلغاء عقد البيع المشكو منه، ودفع مصاريفه.

تذكرت الأشخاص الذين طلبوا مني يوماً تنظيم عقد بيع ممسوح من رجل سوري غير واعٍ حتى لا يرث السوريون.

تساءلت: كيف استطاع الأشخاص الذين جاؤوني يوماً لهكذا غاية ورفضت طلبهم، التغرير بغيري؟ شعرت بغصة وألم.

كنت أشعر بعقدة ذنب تجاه الكاتب العدل/الكاتبة العدل المغرر به/بها، لم أعرف سببها.

ندمت لأنني لم أستعمل معهم كلاماً قاسياً، ولم أقم بتأنيبهم وتوبيخهم بصوت مرتفع، فأقول لهم بأنهم يرتكبون ذنباً وجرماً. مجرد المجابهة الكلامية، كانت أقل ما يجب عمله في ذلك الحين. ندمت لأنني خفت منهم. ولكن ممَّ كنت خائفاً! ولماذا؟

Immediately ومعاملات يوم العيد

اضطررت أن أشتغل ثالث أيام العيد الكبير (الأضحى) ببعض المعاملات، وكنت شعرت بحنين للمكتب. بمجرد أن أنجزت أربع أو خمس معاملات، وقد هممت بالخروج والتسكير، حتى دخل عدد كبير من الأشخاص إلى المكتب دفعات بعضها وراء بعض، من نساء ورجال وشبّان وصبايا وعجائز. جلسوا بمجرد الدخول، والبعض بقوا واقفين ولم يجدوا كرسياً. لم أستطع عدّهم لكثرتهم وكثرة حركتهم. كأنهم جاؤوا جميعاً برحلة في بوسطة كبيرة.

أخبرني أحدهم والذي بدا كأنه - العرّاب - وصار يشيد بي: أنت كاتب عدل جيد وإنساني وعالي الهمّة ومجدّ. نحن تجمعنا من مناطق عديدة في هذا اليوم وحضرنا لتخليص تركة جدّنا المشترك وتقاسمها. تفاهمنا وأتممنا معاملاتنا، ولا نلتقي بعدها أبداً، وقد استغللنا عطلة العيد فجئنا لهذه الغاية. المطلوب منك تنظيم معاملات عقارية وعقود بيع، وبعض الأوراق والوكالات.

وحدّد حصة ونصيب كل مجموعة ومقدارها. وسأل الحاضرين: أليس ما أقوله صحيحاً؟ فردّ البعض: صحيح. صحيح.

بعد أن انتهى من كلامه، استلمت الأوراق والوثائق والسندات، وأحكام حصر الإرث، وتصاريح تصفية التركات، وعدة وكالات بيع وشراء عقارية ووكالات عامة شاملة مطلقة وسندات إيجار وإقرارات بيوع قديمة. اطلعت عليها وراجعت تواريخها وأرقام العقارات، وطابقت بين السندات وتصاريح التركات ووكالات البيع وقارنت بين أسماء الورثة العديدين وأسماء الموكلين والوكلاء، وسألت عن هويات الحاضرين، ودونت على ورقة أرقام العقارات وأسماء المورثين والورثة وأسماء الحاضرين. فتبين أن جميع المستندات هي ضمن المهلة القانونية وتجيز القيام

بالمعاملات القانونية التي شرحها كبيرهم "العرّاب"، ولا يوجد أي نقص. وكان قد مرّ على ذلك حوالى الساعة. أخبرتهم أنه بالإمكان تحضير المعاملات بمهلة يومين أو ثلاثة أيام على الأكثر، وبدون أي خطأ. وحسبت لهم مقدار المعاملات المطلوبة من محاضر انتقال عقارية، وعقود بيع ممسوحة، وتوابعها ومتمماتها من تنازل ووكالات بيع سيارات وقبض إلخ.. وغيرها، ومقدار الرسوم والأجور.

قال العرّاب بأنهم يريدون إنجاز المعاملات وإتمامها واستلامها، هذا اليوم، ولو اضطروا للبقاء هنا إلى ساعة متأخرة من الليل، فلن يتجمعوا ثانية، ويريد كل شخص استلام ما يخصه بيده ويطمئن، ويدبر أمره.

انتابني الحزن لهؤلاء المجتمعين في مكتبـي، الذين صاروا يتحدثون مع بعضهم بمودة وإلفة. وددت أن أقدم لهم الاحترام وشيئاً من الاعتبار لإنسانيتهم، ومساعدتهم بإنجاز معاملاتهم وحل قضاياهم.

اقترحت أن أكتب تصميماً لرغباتهم فأصوره وأعطي كل شخص صورة، حتى لا يحصل أي خطأ، ولأسترشد بها عند كتابة المعاملات، وآخذ التواقيع والبصمات، وبمعنى أن يوقعوا - على بياض - تسهيلاً للأمور، وسأعطي رقماً لكل معاملة، على أن يتم تأريخها في يومنا هذا. وخلال ثلاثة أيام تكون المعاملات مكتملة دون أغلاط، مع طوابعها وموقعة ومختومة، مع ذكر اسم المستلم لكل ورقة. وأن ذلك هو أقصى ما أستطيع فعله لهم والقيام به.

قال "العرّاب": نحن مستعدون للانتظار هنا حتى الصباح. لن نغادر إلا وقد تمت المعاملات. سندفع جميع الرسوم والتكاليف قبل أن تبدأ، وأي مبلغ تطلب تقديرا لجهودك وتعبك جاهز، مئة، مئتان، أكثر، وبالدولار، فأنا حاضر.

انتابني شعور من الخوف من طريقة كلام الرجل ومن الموضوع كله، وبدأت أحس أنني تسرعت باقتراحي أخذ تواقيعهم على بياض، وكأن تيارا من الكهرباء صعقني بعمودي الفقري. ندمت وترددت، وشعرت بإحساس غريب من النفور والخوف والاشمئزاز، والتعاطف مع هؤلاء البشر، والارتياب. جفلت من كلامه، وأحسست بنخسة في صدري. هناك أمر أثار ريبتي لم أستطع

تبيانه. صرت مرتبكاً خائفاً. كم أن الكاتب العدل يمرّ بلحظات خوف وقلق لا يعرف مصدرها، ولا كيف يخرج منها، ولكن خطرها داهم!

رفضت العرض، وأجبت أنني عاجز عن إنجاز معاملاتهم، فإن لم يعجبهم اقتراحي فلا يوجد بديل. ردّ أحدهم أنهم لا يثقون بالموضوع، ويخافون من عدم إتمام الاتفاق. ثم أوضح: نخاف من بعضنا، وليس منك.

ردّ آخر: نريدها اليوم. نريدها الآن، وImmediately. لكن هل تعرف معنى كلمة Immediately؟ أم أن لغتك فرنسية؟ خذ ما تطلب.

أجبت: لغتي ليست فرنسية ولا إنكليزية. إنما عربية. وأعرف معنى كلمتك الإنكليزية Immediately والتي ترجمتها هي (حالاً وسريعاً)، وقد وردتنا في امتحان مادة إملاء اللغة الإنكليزية بشهادة الصف الخامس ابتدائي السيرتيفيكا منذ ثلاثة وثلاثين عاماً فما زلت أذكر. لن أنجز معاملاتكم Immediately ومهما دفعتم، لا هذا اليوم ولا بعد هذا اليوم أو بعد ثلاثة وثلاثين عاماً. لا أريد منكم شيئاً، ولو كان كل مال الدنيا.

صار أخذ ورد، وصار موقفي جافاً وأكثر نشافاً. زاد قلقي وخوفي. حاولت إخفاءه والسيطرة على الموقف وعلى مظهري بصعوبة. أخبرني "العرّاب": نحن اجتمعنا عندك فلا تردنا خائبين. افتح لنا ولا تقفلها بوجهنا، الله يفتحها بوجهك. أنت مجد ونشيط وواسع الهمّة، وتحل أصعب الأمور وأعقدها، وأنت رجل مسؤوليات. وتستحق أفضل المكافآت، ولا تقف بوجهك عقبة.

قلت: آسف، يفتح الله. وهو الفتاح العليم.

التفت الرجل نحو جماعته قائلاً: قوموا نرحل من هنا. هو يطردنا ولا يريدنا، الظاهر أننا أخطأنا العنوان. هيا بنا نخرج ونغادر بكرامتنا. سوف نذهب إلى مكتب آخر، وسأدلكم على كاتب عدل لا يخذلنا. وخرجوا جميعاً وغادروا وأخذوا مستنداتهم. وتنفست الصعداء.

عرفت أنهم توجهوا إلى دائرة أخرى ملحقة بناحية بعيدة - عند موظف مكلف من الوزارة في أحد الملحقات، وليس كاتب عدل أصيلاً أو حقيقياً -! وأتموا معاملاتهم عنده. وتوفي الموظف المكلف بتلك الدائرة، والذي نظم لهم المعاملات، بعد قرابة العام بالسكتة القلبية. عزا أشخاص

السبب بأنه كان من رواد الكازينو، ويلعب بالقمار، وقبض من إحدى المعاملات التي أجراها في يوم عيد مبلغاً كبيراً، وذهب وقتها إلى كازينو المعاملتين ولعب هناك، وخسر فيها كل ما معه من نقود، ولم يبقَ معه قرش واحد. وقال آخرون إن السبب بوفاته أنه أنجز بالعيد معاملات لعدة عائلات في يوم واحد وأُصيب بالإجهاد والإرهاق، وقبض آلاف الدولارات، التي خسرها بالقمار، وتم الادعاء لاحقاً على المتعاقدين من قِبَل ورثة أحد الأشخاص المتوفين المذكورين في المعاملات بأنه حضر ووقّع، ولكنه لم يحضر ولم يوقع، لأنه ميت منذ مدّة، ولكن المكلف بكتابة العدل - وحسب إفادة المدّعي - "أقامه من بين الأموات، وبعث فيه الحياة، وأخذ توقيعه".

أُقيمت الدعوى أمام القضاء الجزائي، وورد بالشكوى بأن الكاتب العدل والأصح، الموظف المكلف بكتابة العدل - كما ورد بالمحضر - كان يعرف هذا الشخص المتوفي الذي - وقع إمضاءه - أمامه، وسبق أن قام بواجب تقديم العزاء والمواساة لأهله، الذين رأووه وكانوا يعرفونه. وبمجرد أن تم استدعاؤه، حتى أصابه الأرق، وبقي مستيقظا كل الليل، وأحس صباحا بألم حاد في صدره وصار يعرق، وكانت تلك ذبحة صدرية مات على أثرها، أثناء نقله على الطريق.

كنت أستمع شاعراً بإحساس غريب وخليط من مشاعر متباينة، لم أستطع تفسيرها!

"الدّبان يعرف بيت اللبّان"[1]

ينتمي محمود إلى عائلة هاجرت باكراً منذ زمن بعيد إلى أفريقيا، وجمعت ثروة كبيرة، واشترت الأملاك والعقارات، وتمتعت بسمعة طيبة، وبمحبة أبناء المدينة والجوار.

تعود معرفتي به إلى صداقة العائلتين البعيدة، وإلى القرابة التي بيننا. بمجرد أن صار محمود يزور لبنان أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن الماضي، وعرف أنني درست المحاماة - مادة الحقوق والقانون - وأصبحت كاتب عدل، حتى صار يستشيرني بالأمور الكبيرة والصغيرة، وصار زبوناً من زبائن المكتب. كان يثق بـي. ولطالما ردّد أنه لا يقوم بتصرف مالي أو حقوقي وبأية معاملة قانونية، إلا بعد استشارتي.

جاء قريبه المهندس أجود، وعرض عليه أن يتشاركا بمشروع مقاولات وتشييد أبنية وبيعها شققاً مفرزة، باعتباره مشروعاً تجارياً رابحاً، وموضة الأيام. والفكرة تتلخص بقيام المغترب محمود بشراء الأرض وتقديمها، فيقوم المهندس أجود بالبناء وإدارة المشروع تجارياً من بدايته حتى نهايته. من الألف إلى الياء، وبمجرد صدور رخصة البناء يبدأ ببيع الأقسام على الخريطة، ويتم الدفع بالتقسيط، خلال مرحلة البناء، وإتمامه وتسليم الشقة، وإصدار السندات، وفي كل مرحلة يقبض مبلغاً حسب الاتفاق. ولن يتكلف المغترب محمود إلا ثمن الأرض. وأما المهندس أجود فيلتزم برخصة البناء وحفر الأساسات وصب الأعمدة والسقوف وإتمام البناء وتشطيب الشقق وفرز البناء إلى أقسام مشتركة وفقاً لقانون ملكية الطوابق والشقق. ويتم تمويل المشروع من المشترين أنفسهم وبالتقسيط. وتتم المحاسبة بينهما بشكل يتفقان عليه. والربح مضمون، وهذه تجارة العصر، وفرصة لا يجوز تفويتها. العرض مغرٍ، كما قال المهندس أجود لأن المصاريف والنفقات سيتم تأمينها من أقساط المشترين.

لما سألني محمود عن رأيي بالاقتراح، أجبته أن من الأفضل عدم الدخول بهكذا مغامرة مع أحد، لأنه لا يعرف كيف سيتصرف وكيف ستكون النتيجة. وقد لا يخرج من المشروع رابحاً، وعنصر المخاطرة والخسارة مرتفع. وشرحت له عن حالات إفلاس حدثت، وجرى فيها نصب واحتيال. أجاب أنه لن يغامر كثيراً، فسيشتري العقار ويسجله باسمه لا باسم المهندس أجود، ويود أن يفتح له الطريق، ويعطيه فرصة لبناء مستقبله، ولا بأس بالتجربة، ولو كان الربح قليلاً، وسوف يتصرف وفقاً لنتائج أول مشروع، وأرباحه.

نظمت لهما الاتفاق - العقد - بكافة تفاصيله وشروطه، مع تبيان حقوق وواجبات كل فريق وصلاحياته، ومدة المشروع، والبند الجزائي، وطريقة حل الخلافات والتقاضي وتفسير العقد، ومواصفات البناء، وطريقة البيع وإدارته، والوكالات المرفقة المطلوب تنظيمها لتنفيذ المشروع والمحاسبة، وغير ذلك.

بمجرد أن اكتملت المستندات، وقبل أن يوقعا عليها، وفيما كان المهندس أجود يسوي وضع الكّرافيت (ربطة العنق) ويعيد ترتيبها بحركة ظاهرية، ويرفع نظّارته الشمسية، ويضعها على جبينه، وقف المغترب محمود وخاطب المهندس أجود قائلاً:

- أنا لم أدخل بهذه التجربة قبلاً، ولم أتعاطَ بحياتي تجارة الأبنية والشقق، ولكنني لأجلك يا أستاذ أجود، ولشق طريق الحياة أمامك أفعل، بشرط سلوك طريق الأمانة والاستقامة مع الناس وعدم الغشّ، وبشرط آخر، هو أن تنظم كافة معاملاتك وبيوعاتك هنا في هذا المكتب، ولا تشاور غيره. فلا تغدر ولا تخن. فهل تعد بذلك؟ فوعده المهندس أجود أنه سيسلك سبيل الشاب "الجنتلمن". وقرآ سورة الفاتحة، وتصافحا، ووقعا الاتفاق.

بدأ البناء، وبيعت الشقق على الخريطة، ونجح المشروع المسمى - Center Hope -. ارتفع البناء وتم تسليم الشقق، وصدرت سندات الملكية، ونظمت عقود البيع الممسوحة. تحاسب الفريقان، وجددا الاتفاق وتم شراء عقارات جديدة لتشييد أبنية عليها، وقام محمود ونظم وكالة جديدة للمهندس أجود تتضمن تشييد الأبنية والحصول على رخصة بناء وإسكان، وبيع الشقق نقدا أو بالتقسيط، وتوقيع الاتفاقيات والعقود الابتدائية والنهائية وقبض الثمن، وإدارة المشروع إلخ. وعاد المهندس أجود يؤكد ثوابته بالاستقامة والصدق للمغترب محمود من جديد، والتصرف كأنه إنسان

أوروبـي متمدن. والتزامه بتنظيم العقود والمعاملات في دائرتنا حصراً. وبدأ العمل بعد أن ضمّ العقارات لبعضها وسمى المشروع الجديد - Al-Ajwed Center -.

حضر المغترب محمود، وكان حديث إفلاس المهندس أجود وأنباء عمليات النصب والاحتيال التي قام بها قد ملأت الدنيا وانتشرت في كل مكان وصارت حديث المجتمع، وبأنه يبيع الناس هواء بهواء، وسمكاً بالبحر، وطلب مني إعطاءه نسخاً عن جميع المعاملات والعقود التي نظمها المهندس أجود.

أخبرته أن جميع مستندات أول مشروع جاهزة، وأما الأعمال التالية فلا وجود لها عندي، ولم أر المهندس أجود منذ آخر مرة حلف يميناً.

سأل مستغرباً: ألم يكن أجود ينظم معاملاته لديك؟

أجبته بالنفي، وبأنني كنت أعرف بعض الأشياء عنه من الزبائن لا أكثر. وسمعت من الناس بأنباء وأخبار النصب والاحتيال، وكنت أظنه يعلم بها.

سأل: أين كان ينظم معاملاته إذاً؟

أجبته: لم ينظمها عندنا.

وأرشدته أين يجب أن يذهب ليحصل على مستنداته. وقلت بأنني كنت أشك منذ علمت باعتماده دائرة أخرى غير دائرتنا، كإشارة لتغير في سلوكه. ربما لم تعجبه طريقتي بشرح النصوص وتفسيرها، وتوضيح الأشياء واستخلاص الرغبات!

قال لي بأن أباه علق لاحقاً على ملاحظاتي: لا تعجب يا بنيّ لأن - الدبّان يعرف بيت اللبّان -، والنصاب يعرف بخبرته وغريزته أين تتوفر عدّة الشغل اللازمة، ومتى يغيرها، فلا تستغرب.

قام محامي المغترب محمود بالادعاء على المهندس أجود بدعوى نصب واحتيال واستعمال الوكالة المعطاة له منه، بغير الوجهة الصحيحة المعطاة لأجلها، واستغلال اسمه بأعمال جرمية. وقامت عشرات العائلات والأشخاص الذين وقعوا ضحية أعماله بالادعاء.

حاول البعض تخليص شققهم وإتمام البناء، وإنجاز المعاملات القانونية لتسجيلها من دون نتيجة.

كان من المستحيل جمع كل الدائنين - خاصة المشترين - ووضع برنامج وتصور لتحديد المبالغ والحصص المتوجبة على كل منهم والنسبة التي سيدفعها. جرب المالك محمود أن يحل الموضوع بشرط توافق المشترين، وكان هذا أمراً غير قابل للتنفيذ لكثرتهم، ولتضارب مصالح المشترين الذين اشترى بعضهم ذات الشقة بنفس الوقت. وبدت المهمة صعبة لا يمكن تحقيقها.

وصفها البعض بأنها - طبخة بحص - ونصحوه بالابتعاد عن الموضوع.

هاجر المهندس أجود ببداية إفلاسه إلى أستراليا مصطحباً عائلته معه. وتأكد للكثيرين هروبه، وبأنه لن يرجع لإصلاح شيء بعدما اختلس أموال المشترين، وتجار مواد البناء وبعض المشترين الذين فسخوا بيوعاتهم القديمة واسترد منهم الشقق مقابل شيكات مؤجلة مع أرباح عليها، وكانت شيكات دون رصيد.

وقالت أخته إن أخاها المهندس أجود لا يفكر بالرجوع إلى لبنان. فلماذا يرجع ويعود؟ ليتم سوقه إلى السجن بعد كل الشكاوى ضده ظلماً وعدواناً؟ أم ليعود ويشتغل سخرة للذين حاولوا استغلاله لطيبة قلبه وكأنه جمعية خيرية؟

وها هي النتيجة. لكنه في أستراليا يعمل بجد ونشاط. فالناس هناك يحترمون القانون والبلاد فيها عدل، وفرص عمل، ورقي. والدولة تقدم الضمانات للجميع.

ظل المغترب محمود متحيراً لكثرة مراجعات المشترين لذات الشقة الواحدة.

وتلك كانت مشكلة صعبة!

أخبره محاميه بأن العقد الأساسي الذي نظمته له مع المقاول أجود جيد، وأمن له الحماية من أية مطالبات جزائية أو مدنية، وهو خارج المسؤولية، ولا يتحمل تبعات تصرفات أجود، إلا ضمن العقار موضوع المشروع.

بقيت الأبنية على حالها. لم يتم حل موضوعها واستمرت الدعاوى العالقة أمام القضاء من دون حكم، وصار يتم تأجيلها من جلسة لأخرى، وصار التأجيل أحيانا يمتد لشهور، وأحياناً إلى سنة وأكثر.

ابن البلد والحارة والجيران

(1) وكالة بيع سيارة

كنت أراه يومياً يمرّ من أمام دائرتنا متأبطا رزمة من الأوراق والسندات والملفات، خارجاً من مكان ليدخل إلى آخر. لم يُجرِ ولم ينظم عندنا معاملة واحدة، بالرغم من كثرة بيوعات الشقق والمحلات التي بناها وأولاده، وتولى بموجب وكالات معطاة له نقل ملكيتها للمشترين، وغير ذلك من المعاملات. كان لطيف يعبر من أمام منزلي أيضاً وبأماكن عدة متأبطاً ملفاته، مشغولاً بأمور أولاده.

لم أكن على صلة مع لطيف أو أولاده. وإن كنت أعرفهم ويعرفونني من قبل. وفي هذه المدينة الصغيرة يكاد الجميع يعرفون بعضهم بعضاً. نادراً ما كنا نلتقي فنتبادل السلام والتحية. وباستثناء معاملة إسقاط دعوى جزائية عن أحد أبناء الرجل بمادة شيك دون رصيد، لم أنظم لهم أية معاملة.

لم أجرّب التعامل مع لطيف، فتجربتي معه غير مشجعة، لما اشتريت من متجره الكبير للأدوات الكهربائية والمنزلية في العام 1975 قبل بدء الحرب بأيام أغراضاً للمدرسة الرسمية، حيث كنت أشتغل معلماً رسمياً، ودفعت الثمن وطلبت فاتورة، فسألني إذا ما كنت أرغب أن يذكر فيها مبلغاً أكثر من المدفوع، لأستفيد بالفرق من صندوق مال المدرسة، وأجبت بجفاء: لا. لا أريد.

بان الامتعاض على وجهه، وابتسم ابتسامة صفراء، ثم أخفاها.

حضر لطيف صباحاً إلى دائرتنا وهو بكامل همّته ونشاطه، وتقدم ملقياً التحية، ماداً يده مصافحاً. تعجبت من مجيئه وحرارة ملقاه. لم يكن يحمل أية وثيقة أو سندات وملفات، أو أية أوراق.

وكان برفقته شخص من زبائن المكتب، عنده كاراج تصليح للسيارات.

خاطبني قائلاً: أنت ابن البلد والحارة والجيران. ونعرف عنك أنك صريح وتقول الصدق. فعليك الآن أن تقوله. أبوك كان مختار بلدنا أكثر من خمسين عاماً، وكان ينصحنا ويرشدنا ويحبنا. جئنا لتعطينا رأيك، ونحن نلتزم بكلامك وحكمك. يريد الأخ أن يشترى سيارتي، فطلب تنظيم وكالة بيع سيارة ورفضت ذلك، فوكالة بيع السيارة لا ترفع المسؤولية عن البائع. وعرضت عليه أن يسجلها بالنافعة - مصلحة تسجيل السيارات والآليات - ولكنه أصرّ على تنظيم وكالة بيع سيارة. قل رأيك ونحن نقبل به. أليس تسجيل السيارة بالنافعة هو التصرف القانوني السليم لرفع المسؤولية تماماً؟ قل له ذلك، وأجبه.

بقيت ساكتاً أسمع كلامه ومجاملاته، ولم أردّ أو أعلّق. سألت المشتري عن رغبته وطلبه. أجاب: لا أرغب باقتناء السيارة، وسأصلح أعطالها لأبيعها بعدها، وسيتم ذلك بمدة قليلة، فالمشتري جاهز. لن أربح شيئاً لو سجلتها على اسمي ودفعت رسوم الفراغ. أجد أن وكالة البيع شيء مناسب.

لم أشأ الدخول بسجال قانوني حول موضوع مسؤولية السيارة، ومبدأ الحراسة القانونية للجوامد والأشياء المتحركة، وتبعاتها القانونية مدنياً وجزائياً. لم أجد ما يدعوني لإثارة مسألة معقدة معهما. اقترحت تنظيم وكالة بيع سيارة لمدة شهرين أو حتى شهر واحد فقط، مع معاملة رفع مسؤولية، واعتبار ذلك كحل وسط. بداية رفض لطيف، ولكنه وبعد موافقة المشتري، قبِل الاقتراح. وطلب من المشتري مغادرة الدائرة، لتنظيم المعاملات بدائرة أخرى حيث ينظم معاملاته، وطلب مني السماح بذلك، واعتذر.

حاول زبون المكتب الذي أُحرِج ثنيه، وأصرّ لطيف على المغادرة إلى مكان آخر، فقلت للزبون: اذهب معه حيث يريد، فمصلحتك هي الأساس، وأنا بغنى عن ذلك.

غادر الاثنان - البائع والمشتري - الدائرة، ولم أكترث لما جرى ونسيت الأمر. لما رجع الزبون الذي اشترى سيارة لطيف لمعاملة أخرى، لم أسأله عمّا حصل له مع الجار لطيف، بخصوص موضوع السيارة ووكالة البيع. لكنه تكلم من تلقاء نفسه بأن اقتراحي تم تنفيذه، وقام بإصلاح السيارة وباعها من شخص يرغب بها، وربح مكسباً معقولاً. وشكرني.

(2) 19 وكالة صالحة وواحدة مدتها منقضية

بعد سنوات حضر لطيف إلى الدائرة، وهذه المرّة لم يكن معه مشترٍ للسيارة، بل كانت معه زوجته حميدة، التي قالت فورا: جئنا لتكتب لزوجي وكالة مني "دولية "حيّة، لا تموت، وزوجي فيها "متحد منفرد"؟

ردّ زوجها مصححاً: تقصد بكلامها، تنظيم وكالة دورية منها، ولي وحدي.

ثم أبرزا لي قصاصة ورق مدون عليها:

"المطلوب تنظيم وكالة بيع عقاري، دورية غير قابلة العزل بكامل حصص هندية الشخصية والشرعية ومهما كان مصدرها والإرثية بالبستان لمصلحة لطيف".

سألتهما: أين هي هندية؟ وأريد سند تمليك البستان وحصر الإرث وتصريح المالية بالتركات.

أخرج لطيف من محفظته كمية كبيرة من الأوراق، ولم يعرف الورقة التي يبحث عنها، وبدا مرتبكا. فسألته عما يريد؟ قال إنه يريد أن يطال وكالة عامة شاملة مطلقة تتضمن البيع والقبض والتوكيل، منظمة من هندية لزوجته حميدة. استخرجت الأوراق وقمت بترتيبها. كانت تسعة عشر وكالة بيع إرثية بعقار البستان من تسعة عشر وريثاً منظمةً لأمر لطيف، ووكالة عامة شاملة مطلقة واحدة منظمة منذ سبع سنوات، من هندية لمصلحة حميدة زوجة لطيف. جميع هذه الوكالات العشرين كانت منظمة لدى ذات الكاتب العدل. اطلعت عليها وعلى الأوراق والمستندات المرفقة المتعلقة بحصر الإرث وتصفية التركات. كانت 19 وكالة بيع العقار صحيحة وضمن المهلة القانونية. لكن الوكالة رقم 20 وهي الوكالة العامة الشاملة المطلقة كانت منتهية المدة، فتاريخها يعود لأكثر من خمس سنوات. ومدة وكالة البيع العقاري محددة قانوناً بخمس سنوات.

أخبرتهما بأن جميع مستنداتهما صحيحة وسليمة وقانونية، ما عدا وكالة واحدة من هندية لحميدة لا تصلح للتسجيل، لمرور أكثر من خمس سنوات على تنظيمها. والمطلوب تنظيم وكالة جديدة من هندية مباشرة.

أخبراني أن الموكلة هندية خارج لبنان. اقترحت عليهما أن يطلبا منها تنظيم وكالة جديدة لدى سفارة لبنان في البلد الموجودة فيه، أو لدى القنصلية، أو أن يطلبا منها الحضور إلى لبنان لهذه

الغاية. ضحك لطيف قائلاً إن ذلك أمر مستحيل، ولم يوضح ماهية الاستحالة.

ردت زوجته بأنها تطلب مني تنظيم وكالة البيع، بموجب التوكيل العام الذي تحمله، يكون تاريخها عائدا لأكثر من سنتين، لمصلحة لطيف، كما هو مكتوب على القصاصة الورقية، ولا يطلبان أكثر. وقال لي زوجها: نطمع بكرمك وإنسانيتك. هل تتذكر بيتكم بالحارة القديمة عندما كنا جيراناً، أم أنك كنت صغيراً؟

سألتهما: لماذا لا تطلبان هذا الشيء من ذات الكاتب العدل الذي نظم كل الوكالات؟

ردّ لطيف: الكاتب العدل لا يملك رقماً فارغاً يعود لأكثر من سنتين، وبمجرد الحصول على التوكيل الدوري سوف يقوم بنقل الملكية ونرد لك الرقم الذي استعرناه. وأنا مستعد لأدفع لك المبلغ الذي تطلب. نحن نحبك لأنك ابن جيراننا وحيّنا، وأهلك أوادم! ووالدك هو مختارنا رحمة الله عليه، كان يحبنا كما تحبنا، ولا يرد لنا طلباً. أنتم ونحن من ذات الحيّ.

قلت لهما: أنا آسف، لا أملك رقماً فارغاً. والمسألة لا تتعلق بالمال، بل بالممكن.

لم أكن أرغب بالمجادلة العقيمة، ومناقشة طرحهما الغريب المريب عن الإعارة.

وتذكرت أن هندية متوفية، وليست خارج لبنان. وكنت مسروراً لأنني اكتشفت وجود خطأ بحصر الإرث الذي أبرزاه، فهندية توفيت قبل زوجها بأيام وليس بعده، وبذلك لا ترث بالبستان. كنت متأكداً من الأمر لأنني اطلعت على حصر إرث آخر مصحح، لا يورد اسمها من ضمن عداد الورثة وأجريت بموجبه معاملة. ولم أوضح شيئاً. اقترحت عليهما بدلاً من ذلك أن يأتيا بالمشتري لهذه الدائرة، لأنظم نقل ملكية العقار حصة كاملة من 2400 سهم، بالطريقة القانونية الأكيدة. لكنهما رفضا اقتراحي. فتعجبت لرفضهما!

قالت زوجة لطيف: المحامي طلب أن تعيرنا رقماً قديماً للوكالة ثم نردها لك، ولم يطلب أكثر. هذا كل شيء ولن نحتفظ بها. سندفع لك ما تريد. ومكان كتابة العقد مسألة تخص المشتري وليس الكاتب العدل. نحن سندفع، ولن نهرب.

تكلم زوجها ملاطفاً، بأسلوب أكثر مداراة: سوف نكافئك ونقدر تعاونك معنا، وأنت ابن بلدنا، و"ابن البلد مثل الولد". لن نتخلى عنك. من لنا غيرك يساعدنا؟

لم أسمع قبلاً ببدعة - استعارة رقم قديم وإرجاعه - وإن افترضت أنهما يريدان تسجيل الوكالة الدورية برقم قديم في السجل اليومي، وهل هما يستغبيانني أم أنهما غبيان؟ أجبت بخوف ولكن بإصرار: إن كان طلبكما تسجيل الوكالة بتاريخ سابق، فهو أمر مستحيل. نحن كاتب عدل لا يعير ولا يستعير. أرقامنا أخذها أصحابها، ولم يتركوا رقما لإعارته. أنا سكّرت الدكان، وسجلاتنا مسكّرة، ابحثا لكما عن دكان يعيركما رقما من قبل سنتين، وأرقامنا نفقت. يبعث الله.

خرجا ولم ألتقِ بهما. وتلك كانت المرة الثانية والأخيرة التي ألتقي فيها بلطيف.

توفي لطيف بعد سنوات، وتابع أولاده تجارة الأبنية والشقق، وصاروا يتذمرون لأن الدولة حرمتهم من بناء الطوابق المخالفة.

أما العقار الذي نظم الورثة به عشرين وكالة، لأجل بيعه فلم يُبع. وقامت دعاوى نزاع على الملكية بين المشترين والورثة، وقام أشخاص آخرون بالتدخل مطالبين بحقوقهم. ومنهم ورثة هندية، الذين طالبوا بحق مورثتهم بالبستان. ووُضع البستان الكبير المغروس بالليمون والحمضيات تحت الحراسة القضائية. وقيل بأن الحارس القضائي أهمله وأكل الأخضر واليابس، ولم يترك لأحد حبة برتقال، وصار البستان حطباً يابساً، وبأن المتداعين طالبوا بتغييره، وطالبوا عائلة لطيف بدفع تعويضات كبيرة عن الحالة التي وصل إليها البستان.

(3) نصف مليون معاملة

جاءت امرأة كبيرة السن، وطلبت إعطاءها صوراً طبق الأصل عن وكالات قديمة. سألتها عن تاريخ تنظيم الوكالات، وعن أسماء منظميها. ردّت أنها لا تذكر، وهي تجهل التاريخ. لكنها منظمة لمصلحتها ومصلحة زوجها هنا. أجبتها بأنه إن لم تذكر أسماء الأشخاص الذين نظموا المعاملات، وتحديد الفترة، فسيكون البحث صعباً، ويلزمه وقت لنجد طلبنا.

ردّت بأنها مستعجلة، ومن حقها الحصول على غرضها فورا. أجبتها بأننا نظمنا أكثر من نصف مليون معاملة، فعليها أن تتذكر قليلا حتى تساعدنا فنساعدها.

أجابت: وماذا بالأمر؟ حفيدتي تحصل على ما تشاء من معلومات، بمجرد الكبس بأصبعها على التلفون الصغير (Cellular). فلماذا لا تفعلون مثلها؟

قلت لها: إبعثي لنا حفيدتك لتساعدنا بالبحث والتفتيش. وأنا حاضر وبالخدمة، وبأمرك يا سيدتي.

قالت: سيدتك هي الزهرا (السيدة فاطمة الزهراء). غداً أبعث لك حفيدتي.

في اليوم التالي حضرت الحفيدة، وبدأنا بحثنا من خلال الحروف الهجائية للأشخاص.

أثناء الحديث عرفت من الفتاة أنها حفيدة لطيف ابن الحيّ والمدينة والجار القديم وزوجته حميدة اللذين كانا يحملان يوماً 20 وكالة، 19 وكالة منها كانت صالحة والوكالة رقم 20 منتهية المدة. أخبرت الفتاة أن معاملات جدّها وجدّتها جرى تنظيمها بغير دائرتنا، وأرشدتها كيف تستدل وتبحث. ورويت لها بعضاً ممّا جرى مع الجدّين، وكيفا لم يتعاونا لما كان باستطاعتي مساعدتهما. وكيف تعقدت الأمور، وأُقيمت الدعاوى والدعاوى المضادة والمقابلة. وأنه كان بالإمكان تحاشي ذلك. وكم كنت سعيداً لأنني اكتشفت الخطأ بحصر الإرث، وأحببت أن أستعمله فأستفيد وأفيد، وتمنيت لو استمعا لي وأتما المعاملة بحصر الإرث الصحيح. لكن الحق هو على الشيطان اللعين.

ردّت قائلة: بل الشيطان الحقيقي هو الطمع والعناد الذي بداخلنا. وأما الشيطان الذي نعرفه ونسمع به، فهو أرحم وأرأف منا بكثير. وأنا أعرف كل شيء عن الموضوع. والحقيقة أن هندية كانت تملك حقاً بالبستان عن طريق المهر الزوجي، لا عن طريق الإرث، ولم تسجله في حياتها، ومهور النساء مقدسة، لا تموت أو تنقضي، ومقدمة على سائر الحقوق، وهذه هي العقدة، وسبب إصرار جدّي وجدّتي على تنظيم الوكالة الدورية هو لإدراج اسم المرأة بالعقد لتبرئة الذمة وحرمان ورثتها من حقهم. وكانا يعرفان كل شيء عن حصري الإرث الغلط والمصحح. كان بالإمكان التفاهم مع ورثة هندية لو دفعا لهم قيمة حصتهم. ولكنهما أرادا الاستيلاء على كل شيء.

سألتها: ماذا تدرسين؟

قالت: أنا درست مادة الحقوق. لم أفكر أن أشتغل بكتابة العدل. وأتدرج هذه الأيام في مكتب للمحاماة. لكنني لن أرافع بدعاوى أهل بيت أمي والتي حذرتني منهم، وطلبت مني الابتعاد عن

قضاياهم.

نصابون محتالون.. أم ظرفاء أغبياء؟

حاولت دائماً معرفة الصلة بين النصب من جهة، وخفة الدم والغباء من جهة ثانية، فلم أعرف سبباً، فهل أن الكذب هو السمة المشتركة لتلك الأعمال؟

حلمي رجل يشتغل بتجارة السيارات. تقريباً كل شيء بالسيارات، مثل عائلته التي يشتغل أفرادها كذلك. أخوته وأولاد أعمامه وعماته. سواقة سيارات عمومية. تأمين طلبات، وتوصيلات للمطار والمناطق القريبة والبعيدة. بيع قطع غيار سيارات. حتى الدواليب. وزينة سيارات. استيراد وشحن سيارات، وتخليصها من الجمارك ولدى شركات التأمين والضمان. حدادة وبويا، وميكانيك وكهرباء وبطاريات، وحتى حمل ونقل السيارات المتوقفة بالبلاطة - الرافعة -. وتعليم السواقة وإنجاز دفاتر سواقة ورخص سير مركبات آلية ودفع ميكانيك. وكأن العائلة صارت مصنع فورد أو مرسيدس لإنتاج سيارات، أو "نيو ميني نافعة" جديدة مصغرة.

كل العائلة مجدون ونشطاء ويتصفون بالنشاط والصدق والأمانة. ولكن حلمي يختلف عنهم ببعض الأشياء.

يقولون عنه بأن يده طويلة ولا تلحق الزيت المغلي، ويسحب الكحل من العين، مع أنه ناعم وهادئ والطيبة ترشح عن جوانبه ولطيف ولسانه حلو، وتعبان عليه.

هو من زبائن المكتب القدامى. ولطالما نظمت منه أو له وكالات بيع سيارة، وقيادة وتجول وتخليص معاملات، أو حتى وكالات قضائية لمحامين للدفاع عنه، بالإضافة لإسقاطات الدعاوى الجزائية عنه. وما أكثرها!

افتقدت ذات مرة مجموعة من الطوابع المالية. بقيمة 15 ألف ليرة أو أكثر. وصرت أبحث عنها. لم أعثر عليها. سألوني بالمكتب عما أبحث؟ أخبرتهم. قالوا لي إن بيد حلمي طوابع بالعدد الذي ذكرت.

صار يبكي ويحلف يميناً أنه اشترى الطوابع من محل بيع طوابع لأجل معاملة.

لم أصر على البحث وتجاهلت الأمر.

وبقي يرتاد دائرتنا مراراً. إلى أن حضر باكراً ذات يوم، وطلب تنظيم وكالة لأمر زوجته لقبض مساعدات وتقديمات صندوق الضمان والمساعدات المرضية، وطلب مني التدقيق بالمعاملة وعدم إغفال شيء، لأنه سوف يدخل السجن غداً!

استغربت كلامه هكذا، وصراحته لجهة دخول السجن غداً، وتأكده من ذلك! وبهذه البساطة وكأن دخول السجن مثل دخول المطبخ أو بيت الجيران أو دكان.

أخبرني مؤكداً أن غداً هو موعد النطق بالحكم عليه بالدعوى الجزائية، ومن المؤكد أن الحكم سيثبت قرار البداية، وسيودعونه السجن، وأنه يجهز نفسه وعائلته للقرار المنتظر، ويهيئ شنطة ثياب الحبس المؤكد. وقال لي: أنا زلمي صريح، ولا أكذب أبداً.

سألته عن الجرم. أجاب بأنها دعوى نصب واحتيال. لأنه حصل على وكالة بيع سيارة من شخص، وذهب لمصلحة تسجيل السيارات ونظم هناك صك بيع، وقبض الثمن ولم يوصله لصاحبه الموكل بائع السيارة لأن المبلغ ضاع منه.

سوف يسجن لمدة ستة أو تسعة شهور بالكثير، لأن محاميه أكد له أن الأمر كذلك، بعد أن يستحصل له على قرار إدغام الحكم الجديد مع الأحكام الجزائية السابقة بجرائم مشابهة.

وطلب مني استمهاله بدفع رسم الوكالة البالغ 27.100 ليرة - حوالى 18 دولاراً -، لحين خروجه من السجن بعد 6 أو 9 شهور. وحلف يميناً أنه سيدفع.

سألته: لماذا تقوم بهكذا أفعال وتصرفات معيبة ومخجلة؟

رد مجيباً: هي لوثة بالعقل، وأنا في ذلك "مخول" (طالع لأخوالي)، وليس لأعمامي. هذا من الله. أما إخوتي فكلهم أوادم وشرفاء والحمد لله. بمجرد خروجي من السجن بعد أشهر، سوف أحضر وأدفع لك رسم الوكالة وحبة مسك، ولن تخسر إلا تربيح الجميل.

لكنه لم يحضر بعد 6 شهور أو 9 ولا بعد سنة. بل حضر بعد سنتين ونصف.

سألته عن سبب تغيبه الطويل.

أجاب أنه أثناء جلسة المحاكمة تعرفت إحدى السيدات إليه، بعد أن عرفت شكله، وادعت عليه بجرم نصب واحتيال، لأنه اقترح عليها أثناء وقوفها بالصف الطويل أمام مكتب البريد لتسديد اشتراكات الهاتف، أن يحل محلها بالدور، ويقوم بالدفع، حتى لا تنتظر وتتعب. واستلم النقود ورقم الهاتف على ورقة. لكنه أضاع النمرة، ولم يستطع أن يدفع بعد أن نسي الرقم، ولم يتذكر أن يعيد للسيدة نقودها. بالإضافة لحكم جرمي آخر بشيك دون رصيد.

سألته: ومتى ستدفع لي رسم الوكالة؟

رد: قريباً. سوف أدفع لك. أنت تعرف أنني لا آكل حق أحد، ولا أكذب.

وبعد سنوات تقاعدت، وبقي حلمي يتردد على مكتبي، وأقدم له النصائح والمعلومة - مساعدة معهودة - لكنه لم يدفع لي قرشاً واحداً من أجرة وكالة قبض تقديمات ومساعدات الضمان.

من الذي قال شبعت اللقمة؟

(1) سرقة في البيت

في البداية كنت أشتغل بعد الدوام في المنزل. أحياناً أنظم معاملة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع معاملات، وأخرج من البيت.

وأعود وأجد أشخاصاً أمام البناية بالانتظار لتنظيم معاملات مثل وكالة بيع سيارة أو وكالة عامة ووكالة قبض وحتى معاملة عقارية، فأقوم وأنظم لهم معاملاتهم. لم يكن وقتها نظام ثابت ولا مواعيد دقيقة يلتزم بها أحد. تعبت من ذلك كثيراً. فقد كانوا يأتونني بأي وقت. صرت أرتب المواعيد عبثا ومن دون طائل. رفضت بإصرار العمل ليلاً وفي الأعياد، فقد بدا لي الشغل ليلاً مثل حالة تلميذ مدرسة ابن عشر سنوات، راكم فروضه يوم عطلة حتى الليل، فصار يتثاءب وهو يغالب النعاس وقد أصابه الاكتئاب. فيما بدا العمل في العيد كما لو تم انتزاعي من أهلي وأصحابي. كانوا يأتون خارج الدوام متذرعين بذات التبريرات مثل اضطرار الشخص للسفر بعد ساعات من مطار بيروت، أو بداعي شغل طرأ فجأة أو الاستعداد لدخول مستشفى، أو استقبال ضيوف وما إلى ذلك من أسباب وتبريرات يذكرونها، لم أكن مقتنعا بواحدة منها. لكنني عملت وتابعت العمل، واعتبرت أنني بذلك أخدم الناس.

إلى أن عدت ظهر يوم أحد، ووجدت باب بيتي - في الطابق الرابع - وبه بعض التكسير، مفتوحا ومخلوعا. أغراض البيت مبعثرة، والخزائن والجوارير مفتوحة، وبعض الثياب ملقاة على الأرض. وقد تم قلب الفِرش واللحافات والشراشف.

لقد تعرضت لسرقة! مع كسر وخلع الباب. لم يكن أحد من عائلتي في البيت وكنت أول من يكتشف ذلك. وهنا شعرت ببعض الارتياح.

تصرفت مع المفاجأة المذهلة والمزعجة كما يجب.

تقدمت بشكوى في مخفر الدرك، مع تأكدي بعدم جدوى ذلك.

أحصيت الخسائر وعدت إلى حالة الذهول. صرت خائفاً وغاضباً، أفكر بجرأة اللص أو اللصوص، ووقاحتهم وجرأتهم على خلع الأبواب وسرقة بيوت الناس بوسط النهار، وشعرت بالإهانة وبالاكتئاب.

واتخذت قراراً بعدم العمل في البيت، والامتناع عن تنظيم معاملات فيه، فكثرة الداخلين والخارجين تساعد السارق على معرفة المداخل وتعطيه فكرة عن البيت وعن المكان، وركبّت بوابة حديد خارجية، وكانت عمليات السرقات قد كثرت تلك الأيام، مع تزايد المعارك في بيروت، وهروب أعداد غفيرة من الناس منها.

ومثل باقي الأمور، تستمر الحياة، ويرجع الناس يتابعون أمورهم كما كانوا يفعلون من قبل مع بعض التغيير والتبديل.

غادرت المنزل عصراً، وفي الشارع التقيت أمام مدخل البناية بأشخاص يهمون بالدخول، وأخبروني أنهم جاؤوا لإجراء وتنظيم وكالة بيع سيارة، والمشتري آت وراءهم ليدفع الثمن، ولن يتأخر.

اعتذرت منهم، وأخبرتهم أنني لن أشتغل بدءاً من اليوم في البيت، وعليهم أن يدبروا حالهم. أبدوا الاستغراب والاندهاش محاولين ثنيي عن قراري ولو هذه المرة. بقيت مصراً على موقفي، ولم أشرح السبب الذي دفعني لذلك، وكررت اعتذاري.

لكن أحدهم سألني: أفهم من كلامك أنك شبعت اللقمة؟

أجبته: نعم. الحمد لله.

ردّ قائلاً: غير صحيح. ومهما فعلت فأنا متأكد أنك لن تشبع اللقمة.

لم أرد عليه، ولم أعرف بماذا أجيب، وبقيت ساكتاً لحظات، ثم قلت له: شكراً.

تابعت طريقي. وفي اليوم التالي أشار عليّ أهلي أن أشتغل بعد الدوام في مكتب ملحق ببيتهم، فذلك أفضل وأسهل. ووجدت الحل معقولاً.

(2) نعسان.. بردان.. تعبان

رن جرس الباب ليلاً، لما كنت أغطّ في نوم عميق في يوم شتوي بارد. نهضت منزعجا متثاقلا، وسألت من وراء باب الخشب والحديد: من يقصدني في منتصف الليل، ويرن على جرس بابي؟ ردّ عليّ شخص يطلب مني أن أفتح لهم الباب، لأنهم يريدون تنظيم معاملة إسقاط عن شخص موقوف في مخفر الدرك، والأمر مستعجل وهام.

كلمتهم بأنني لا أعمل في الليالي، ولأي سبب كان، وغداً عند طلوع الضوء بالإمكان تنظيم السند المطلوب. وبقيت أكلمهم من وراء الباب ولم أفتح لهم.

كانوا مستعجلين كثيراً لإتمام الإسقاط ولا يريدون أي تأخير، خوفاً من ترحيل الموقوف من المخفر إلى قاضي التحقيق، وعندئذٍ تصير المسألة أكثر صعوبة وتعقيداً.

- سوف يتم الترحيل في تمام الساعة الثامنة صباحاً. قال أحدهم. ومن دون أي تأخير.

قلت: أنا مستعد لأنظم المعاملة في الدائرة في السادسة صباحاً، لا الثامنة، وأتعهد لكم بذلك. دعوني فأنا نعسان، بردان، تعبان وأريد أن أنام.

لم ينفع الكلام، ولم أتجاوب. سمعت أحدهم يقول: لو كان زميلك الأستاذ الكاتب العدل، ساكناً ها هنا في هذا البلد، لقام ونظم لنا المعاملة، وفتح لنا بيته مثلما يفتح لنا دائرته.

قلت: اذهبوا إلى منزل زميلي الأستاذ الكاتب العدل، واطلبوا منه ذلك.

ردّ الصوت ذاته: بيته بعيد، ولو كان قريباً ما كنا قصدناك.

قلت: في المحل الذي تنظمون معاملات النهار، أكملوا معاملات الليل.

ردّ ذلك الشخص: ألم أقل لكم بأن الكاتب العدل لن ينظم لنا معاملتنا؟ لقد شبع اللقمة.

عدت إلى النوم، ولم أكترث، ولم أعرف من الذي طرق بابـي، ولا من عيرنني باللقمة.

في الصباح رويت لشقيقتي نهى والموظفين قريبـي حسين عرب والمختار إبراهيم بيطار عن محادثة الليل الفائت.

ردّ المختار إبراهيم: كان يجب أن تستعمل معهم القول السائر عن الدجاجة "يا دجاجة، محل ما تبيضين بيضاتك، اذهبـي وقاقي".

(3) طلاق في منتصف الليل

التقيت وأنا عائد إلى البيت في منتصف الليل بأحد الأشخاص ممن أعرفهم من زبائن المكتب. وقد جاءني لأمر هام ومستعجل. يريد مني أن أضيف على نص الوكالة العامة الشاملة المطلقة المعطاة له من والده والمنظمة في دائرتنا، عبارة أو صلاحية (الطلاق) على النسخة التي يحملها. بمعنى أنه يصبح قادرا عند الإضافة المطلوبة القيام بطلاق أبيه من زوجته، وأختم له على الإضافة وأوقّع ليتمكن الشيخ من إجراء الطلاق.

قلت له أن يحضر معه أباه صباح الغد إلى الدائرة لإضافة النص المكتوب، على أن يوقّع الموكل ـ الأب ـ على نسخة الوكالة.

اعترض الابن لأن الأمر ضروري ولا يحتمل التأخير، فوالده مريض في المستشفى، وقد يتوفى ولكنه واعٍ، ويجب الإسراع قبل أن يموت الرجل والأمر لا يحتمل التأخير، فربما يموت قبل الصباح ما لم يكن قد مات. وأن فكرة الإضافة لم تأتِ منه، بل باقتراح من الشيخ (رجل الدين المأذون) الذي سيجري الطلاق. وقد أخبره أنه لا يستطيع أن يطلق الرجل من دون وجود نص بذلك. وقال:

- الأمر هام وفي غاية الخطورة، لأن أبـي لو مات قبل أن نطلقه من زوجته الثانية التي تزوجها بعد وفاة أمي، فسوف ترث. وتصبح المرأة ـ الغريبة ـ شريكة لنا بميراث أبينا.

اعتذرت من دون الخوض في عدالة رغبته أو أخلاقيتها، متذرعاً بأن أية إضافة يلزمها توقيع الموكل ورضاه، وبشرط أن يكون واعياً، وأن يوقع على الإضافة. فقال لي:

- أنت يا أستاذ تعقد الأمر، وتتسبب لي ولإخوتي بخسارة كبيرة إذا لم تقم بالإضافة.. ألا تعرف بأن الوالد نظم لي الوكالة العامة الشاملة المطلقة بمثابة نقل ملكيته لأولاده لا لخالتهم زوجة أبيهم؟

أنكرت ما أورده لي، وأخبرته بأن هكذا وكالة هي لقضاء الأشغال والتصرف بها، ولكنها ليست انتقالاً للملكية.

لم أشأ مجادلته، فكل حكاية لا بد لها يوماً من نهاية، فتصبح الحكاية عندها حكاية. ولكل شيء نهاية.

وغادر منزعجاً مستاءً يدمدم بكلام غير مفهوم.

بعد مدّة التقيت بالابن صاحب طلب إضافة عبارة الطلاق على وكالة الأب، وكان برفقته شخص لا أذكر اسمه وإن يكن وجهه مألوفاً لي.

أخبرني أن أباه مات صباح اليوم التالي، والحمد لله فقد قام وطلقه من امرأته طلاقاً خلعياً قبل الوفاة بقليل برضى الزوجة. وأن هذا الصاحب الواقف الآن بجانبه دلّه حينها على أحد الكتّاب العدل فنظّم له وكالة طلاق بكل ممنونية ولم يسأل عن شيء، وأخذ توقيعه في المستشفى بكل بساطة، وقام الشيخ وأجرى الطلاق ليلاً من دون تأخير ثم مات الأب، وهكذا خرجت الحرمة (المرأة) الغريبة من عداد الورثة، وبقي الحق مع أصحابه. وأنه دفع للشيخ الذي أجرى الطلاق وللكاتب العدل الذي نظم الوكالة مبلغاً محترماً. وتمت الأمور بسلام.

ردّ الشخص المرافق قائلاً: ولكن الأستاذ الكاتب العدل شبع اللقمة.

تذكرته من صوته، فهو ذات الشخص الذي كان يعيرني بأنني شبعت اللقمة، وعرفته تماماً. وقلت له:

- الآن عرفتك وتذكرت اسمك. أنت الذي كنت تناحسني (تجعل أيامي منحوسة بالإغاظة) إذاً. أنا أعرفك سمسار سيارات وبيوت ومحلات لا أكثر. لكنني الآن عرفت أنك سمسار طلاق. صحّ المثل الذي قال، "جبل لجبل لا يلتقيان، ولكن ابن آدم لابن آدم يلتقيان". تذكر أيها المواطن الصالح بأن من شبع مرة من سفرة أبيه فلن يجوع أبد الدهر، ومن لم يشبع من بيت أبيه فلن تكفيه كل مآدب الدنيا وولائمها.

كم تبعد عنا سفارة لبنان في أوتاوا
عاصمة كندا؟

الحاجّ مصطفى وكنيته أبو محمد رجل في العقد التاسع، أي في الثمانينات من عُمره، يضع دوما على رأسه طاقية بيضاء صيفاً، وفي الشتاء طاقية شتوية (كولبك) بنّية اللون، ويحمل بيده مسبحة يُسر لونها أبيض يخالطها احمرار قليل، وهو حليق الشارب واللحية، مع سكسوكة (شعر الذقن تحت الشفّة السفلى)، بيضاء شائبة علامة الإيمان والصلاح والتقوى، ويستعين بتنقلاته بعصا أفريقية لا تفارقه.

حجّ منذ زمن لبيت الله الحرام، ومنذ ذلك الحين لا يقبل إلا أن ينادوه بلقبه العزيز: الحاجّ مصطفى، الحاجّ أبو محمد، يا حاجّ، ويردّ: يا روح الحاجّ، يا عُمرُه، يا عيون الحاجّ. ويرفض أن يخاطبوه باسمه أو كنيته ـ أخ مصطفى، سيد مصطفى، أبو محمد، عزيزي، صديقي، بدون ذِكر الحجّة. ويردّ في هذه الحالة بجواب خليط من الغضب والمزاح: أين أضعتَ لي حجّتي؟ هل اشتريتها بالفلوس أم استعرتها من بيت أبيك؟

تربطني بالحاجّ مصطفى صلة معرفة وصداقة قديمة بين عائلتينا. فهو ابن البلد، والمرحومان أبوه وأبـي صديقان، وهو ابن عمّ صديقي كريم. ولطالما التقينا في بيت عمّه وتحدثنا في جلسات عديدة وطويلة. هو بصراحة خفيف الدم بعض الشيء ويسبق الجميع من الصغار والكبار، بالسلام قائلاً: السلام عليكم. ويكثر من المزاح رغم تدينه، ويردد أن النبـي محمد (صلى الله عليه وسلم) كان بشوشاً دائم التبسم ولطيفاً، وبأن صحابته كانوا خفيفي الظل ويمزحون مزحاً بريئاً. كان يقصدني مع إخوته، يستشيرونني بالقضايا القانونية. لكن ابن عمه كريم كان يتعجب من انسجامي معه، ومن قدرتي على تحمل أحاديثه المكررة، ومواعظه المملة.

لما توفيت زوجته الحاجّة أم محمد منذ سنوات ودُفنت في كندا، كان زوجها الحاجّ أبو محمد في لبنان، فقام وفتح بيته لتقبل العزاء لمدة أيام، وزرتهم في بيتهم وقدمت العزاء والمواساة، وحضرت الاحتفال الديني بالختام.

بعد وفاة أم محمد بمدة، توفيت أمها (حماة الحاجّ)، إنما في لبنان.

جاءني الحاجّ أبو محمد طالباً تنظيم وكالة من أم محمد له، ليبيع حصتها التي ترثها عن أمها بالعقار الذي في المدينة.

استغربت طلبه لأن زوجته أم محمد توفيت قبل أمها، ولا ترث عنها لأنها ماتت قبلها، ولا حق له ولأولاده بالميراث، فنوع العقار ملك، وتنطبق عليه أحكام الشريعة الإسلامية التي لا تورّث الأحفاد المتوفي والدهم قبل جدهم. ولا حاجة لتنظيم الوكالة من الأساس. سألته كيف يتم تنظيم وكالة من شخص ميت؟ وهو أمر باطل شرعاً وقانوناً وجريمة يعاقب عليها القانون. أجابني:

- حرمتي الحاجّة أم محمد الله يرحمها ويرحم موتاك، هي على قيد الحياة، في سجلات مأمور النفوس، ولم تمت إلا في كندا، وليس في لبنان، فلم يتم توفيتها (شطب سجلها) بسبب ضياع وثيقة الوفاة المرسلة من السفارة اللبنانية في أوتاوا بكندا، والتي لم يعثروا لها على أثر في بريد الحقيبة الديبلوماسية. وهكذا فهي أحد ورثة أمها. المهم هو تنظيم وكالة بيع من زوجتي لي لتسهيل الأمور وبيع العقار ولا أريد أكثر، وأنا أوقع على الوكالة مكان المرحومة الحاجّة أم محمد، ولن يعترض أحد وكلنا متفقون. كن مطمئن البال فسأتحمل كامل المسؤولية، وأهلك وصديقك كريم ابن عمّي وكل الناس، وأنت تعرفون، وأنت أول من يعرف أننا لا (نغشّ ولا نزعبر) لا سمح الله، والرجال قوامون على النساء وأفضل منهن. أنت أخبر الناس بنا وببيت عمّي.

رفضت طلبه، ولم أخض بدوافعه وأسبابه، وتفسيراته الغريبة قائلاً:

- علينا تسجيل وفاة حرمتك بالنفوس أولاً، وتنظيم حصر إرث للمرحومة حماتك والدة أم محمد بعد ذلك. ومسألة تسجيل وفاة أم محمد بسجلات النفوس أمر سهل. مصلحتنا هي الإسراع في (توفية) الحاجّة أم محمد في سجلات النفوس، قبل تنظيم حصر الإرث لأمها، ويمكن الحصول على وثيقة وفاة جديدة من السفارة اللبنانية في أوتاوا، وطلب تحويلها من جديد للخارجية، أو استخراج صورة طبق الأصل بدلاً من النسخة التي ضاعت في بريد الحقيبة الديبلوماسية.

ردّ حانقاً، زاماً شفتيه: آ. آ. المسألة بسيطة وسهلة إذاً. هيه هه. ومعاملة استخراج وثيقة وفاة جديدة من السفارة هينة جدا، مثل شربة ماء كما تقول. معك حق. لكن هل تعرف كم تبعد عنا سفارة لبنان في أوتاوا عاصمة كندا؟ فقط خمس أو ست خطوات، بمقدار المسافة من هذا البيرو (المكتب) المتحلقين حوله حتى هذه الشْشمة (الحمام أو W. C) لا أكثر. أرأيت ما أقربها! نمشي ست أو سبع فشخات ونصل. هيه هه.

وضعت القلم الذي بيدي، وتركت كل شيء، ووقفت ساكتاً. أقفلت شفتيّ بإحكام، كي لا أنطق حرفاً يفلت مني. أخذت نفساً عميقاً، وقلت: اسمع يا أبو محمد، وبلا (حاجّ) هذه المرّة ودع الحِجّة بالبيت. أنا لم أفهم كل هذا اللف والدوران. ولا يهمني ماذا تخطط، ولا أعرف. أما أن تهزأ بـي شخصياً وتسخر، فهو أمر أقبله منك، ولكن ليس هنا أو حول هذا البيرو، ربما هناك، في بيت عمك عند صديقي كريم. والتعابير المسيئة لا تُقال هنا، لو سمحت. لا تهزأ ولا تسخر لما تكون في دائرة كتابة عدل، فمزاحك مرفوض. قل لي ما تريد بصراحة.

اعتذر قائلاً: لا تغضب، فكندا بعيدة، والمسألة صعبة، اعتبرني أخاك الأكبر.

- كلا. بل شغلتك بسيطة، نبعث من هنا وكالة مصدقة أصولاً إلى قريب أو صديق هناك، فيتوجه للسفارة اللبنانية في أوتاوا، ويطلب تحويل وثيقة الوفاة من جديد، أو استلام وثيقة جديدة بسبب خطأ الدولة وخطأ بريد الحقيبة الديبلوماسية. وكلفتها لن تزيد عن مئة دولار أو مئتين. الأمر فعلاً بسيط هذه الأيام بوجود البريد السريع وسهولة الاتصالات.

صار يعتذر قائلاً إنه كان يمزح وأخطأ بالمزاح، ولكنه يتكلم من قلب محروق خوفاً من هروب مشترٍ للعقار سيدفع ثمناً مرتفعاً لا نحلم به. والغاية هي مصلحة أولاد حماته، وهو يثق بـي وأمله كبير، ويجب تذكر صداقة الكبار والأبناء. وخرج مغادراً محيياً: السلام عليكم.

بعد ذلك حضر شخص يودّ استيضاحي بتنظيم وكالة قضائية لأحد المحامين بموضوع نصب واحتيال جرى عليه من المدعو الحاجّ مصطفى أبـي محمد، الذي باعه حصة إرثية بعقار يعود لحماته
في المدينة. وقبض منه العربون مبلغا وقدره (6.000 دولار) وتبين أنه لا يرث فيه، ويرفض ردّ العربون، فهو ضحية عملية خداع وغش.

ثم سألني: هل تستطيع أن تتدخل، فتحل المشكلة؟

طلبت منه التريث، واتصلت بصديقي كريم وإخوته، وشرحت لهم الخطأ الذي قام به ابن عمّهم. صاروا يلوون رؤوسهم متأسفين، وعلق صديقي كريم: على ماذا نحزن يا ابن عمي؟ أعلى ضياع حجتك؟ أم على عقلك الذي أضاعه الخرف؟ أم على المشتري الذي أضعت ماله!

ووعدوني بالعمل على حل المشكلة. ولكن الحاجّ مصطفى لم يرد العربون بعدما صرفه. عندها اتصلوا بأحد إخوة أم محمد الأثرياء فجاء سريعاً من المهجر، وردّ للمشتري نقوده. واشترى جميع حصص إخوته الإرثية، ودفع الثمن بالتساوي بين حصص الذكور والإناث. وعاد فجعل لأخته المتوفية أم محمد حصة فرضها على نفسه كأي واحد من إخوتها، ووزعها على زوجها وأولادها بالتساوي. وطلب مني تنظيم صك براءة من أولاد أخته، بأن كافة حقوقهم من عقار جدتهم في المدينة قد وصلتهم ويبرئون ذمة خالهم من أية حقوق أو مطالبة، ووقع معهم والدهم الحاجّ. فكتبت نص الإبراء، ووقعوا جميعاً عليه.

وكالة طلاق

وكالة الطلاق نوعان، هما، إنشاء الطلاق وإثبات الطلاق.

ونستعمل في الحالتين التوكيل الخاص - وأحياناً نورده في التوكيل العام - وإنشاء الطلاق يلزمه دائماً نص صريح وواضح.

ويقال في وكالة إثبات الطلاق:

"قد وكلت فلاناً بإثبات طلاقي من زوجتي (أو من زوجي) وتسجيله والمرافعة والدفاع عني بالخصوص أمام القضاء المختص، وتمثيلي أمام دوائر الأحوال الشخصية، وسجلات النفوس إلخ".

وإذا كان أحد الزوجين أجنبياً، نورد عبارة "وتمثيلي أمام سلطات الأمن العام"، ولا بأس من إيرادها بباقي الحالات.

أما في وكالة إنشاء الطلاق، فنورد العبارات التالية:

- قد وكلت فلاناً بطلاق زوجتي والتلفظ به، وإنشاء الطلاق وتسجيله وإثباته. إلخ إلخ - وبقية الكلمات المذكورة أعلاه.

وإذا كانت الزوجة المطلقة هي الموكلة فتقول:

- قد وكلت فلاناً بطلب الحصول على طلاقي من زوجي، وبإنشاء الطلاق إلخ إلخ -.

والسبب في اختلاف صيغة عبارة الطلاق بين الرجل والمرأة هو أن العصمة بيد الزوج.

وأحياناً نذكر عبارة المخالعة، أو قبول المخالعة في موضعين. عند الطلاق النهائي الذي لا رجعة فيه، فلا يستطيع الزوج إرجاع وردّ طليقته بعد فترة العدّة. ومن المهم إيراد عبارة - البذل وقبول البذل - مثل التنازل عن المهر أو عن جزء منه، أو عن النفقة أو دفع مال وسوى ذلك، لأجل إتمام الطلاق. أما الموضع الثاني الذي نورد به عبارة المخالعة وقبول المخالعة، فعند طلاق زوجين لم يجر بينهما دخول.

وفي حالة تنظيم وكالة إثبات لطلاق حصل خارج الأراضي اللبنانية نورد عبارة - وإعطاء الصيغة التنفيذية للأحكام الأجنبية -.

ويمكن إيراد عبارات متفرعة عن الطلاق مثل الحضانة والرؤية - مشاهدة الأولاد - والنفقة والمهر ومنع السفر وإباحة السفر، حسب رغبات الموكلين بعد الاستيضاح.

الأفضل تصوير هويات أصحاب العلاقة، وتوقيعهم على الصُور منعاً للتزوير. وكما أخبرني أحد الزملاء بما جرى معه ونصحني منبهاً:

- حدث أن وكل شخص أخاه بطلاق زوجته. وقام الوكيل وأجرى الطلاق. وبعد إتمام العدّة الشرعية تزوج الوكيل طليقة أخيه المسافر. حضر الزوج وادعى على أخيه بأنه زور هويته، واستعمل الهوية المزورة بتنظيم وكالة طلاق، وقام بموجبها بتطليق زوجة أخيه، وعقد قرانه عليها، فجاء طالباً إبطال الطلاق وردّ الزوجة!

أدلى الكاتب العدل بشهادته أمام الجهات القضائية، بأنه لم يقم إلا بواجبه، وأما مسألة تزوير بطاقة الهوية فلا علم له به، ولو علم لامتنع عن تنظيم الوكالة.

سأل المحقق زميلاً له: لماذا تحصل هذه التصرفات السيئة والمعيبة؟

أجابه زميله: فعلاً، لماذا تحصل؟ سوف أخبركم لماذا. وردد بيتاً شهيراً من الشعر القديم:

كلا الأخوين ضرّاط ولكن

شهاب الدين أضرط من أخيه

سكت وعاد متابعاً: لكن الزوجة المطلقة أضرط من الزوجين الأخوين..

طائر السنونو

اليوم بداية فصل الربيع

وأنا أعبر جانباً محلة الآثار في طرف المدينة، كانت طيور صغيرة بحجم قبضة اليد، ذات أجنحة تنتهي بشكل مثلثات صغيرة تعبر وتطير في كل مكان. وعرفت هذه العصافير؛ إنها طيور السنونو.

لطالما سألني الأصدقاء والأصحاب وزبائن الدائرة عن الوضع الاقتصادي، وكما لو أنني خبير اقتصادي، عن الوضع المالي والتجاري، وعن حركة السوق من خلال عملي في كتابة العدل. وعن توقعاتي بخصوص حركة العقارات من بيع وشراء وغير ذلك من قضايا وشؤون التجارة والسوق.

كنت أخبر بما ألاحظ، وما أرى من دون أي قدرة على تفسير ظاهرة تحسن - أو تراجع - عمليات البيع والشراء خلال أوقات محددة في السنة.

حتى سألني يوماً صديقان شقيقان عن الوضع التجاري، هل تحسن أم أنه ما زال جامداً؟

أجبت أنه في بداية التحسن، وأتوقع المزيد من الحركة، لأنه جرى اليوم دفع الرسوم العدلية بورقة عشرين دولاراً أميركياً - تساوي 30 ألف ليرة، وبأنني متأكد من توقعي.

ولكن ما هي العلاقة بين الدفع بفئة العشرين دولاراً أميركياً وتحسن المعاملات التجارية؟

سأل الصديق الأكبر.

- لا أعرف. أجبت. ولكن ذلك يتكرر دائماً. فعندما يتم الدفع بورقة العشرين دولاراً. لا المئة دولار أو الخمسين دولاراً أو العشرة، أو العملة اللبنانية، فإن المزيد والمزيد من المعاملات تجري وتتكرر ويستمر الوضع بالتحسن. أما لماذا يحدث ذلك؟ فلا أعرف.

ردّ الصديق الأصغر معلقاً مع شيء من التبسم:

القول السائر عندنا، وسأقوله كما أعرفه "عندما ترى سنونو واحدة فأعلم أنه أقبل فصل الربيع".

ربما كانت قطعة العشرين دولاراً علامة على مجيء فصل الربيع!

جرى هذا الحديث منذ سنوات، بعُدت شيئاً ما. بمجرد رؤيتي هذا اليوم طيور السنونو تروح وتجيء، تذكرت الحديث القديم، وتذكرت كيف أن الدفع بتلك القطعة النقدية، كنت أجده حينها علامة على تحسن الشغل.

أما عن السبب والعلاقة بينهما، فلا أعرف. رغم كل تلك السنين، التي مرّت، وبعدما تقاعدت. ولا أعرف هل هذا حقيقة أم هو مجرد وهم زائف!

حاتم الزبون القديم

حاتم رجل في العقد التاسع من عمره - أو في الثمانينات -. كثير الكلام والحركات والنشاط، طويل القامة، يتمايل بجسمه مثل طاروح قصب تهزه الريح. وهو كثير الكارات (الأشغال). اشتغل بعدة صنعات، بائع بوظة، صبـي كندرجي - مصلح أحذية - بائع حملة وملانة (حمُّص مشوي)، صبـي صالون حلاقة رجّالي، معاون سائق بوسطة، حاجب عند مكتب نواب القائمة الشعبية الفائزة بدورات 1960-1964 - و1968، وأخيراً لا آخراً في مكتب معاملات من كل الأنواع: عقارات وسيارات وتصديقات وترجمات وسجلات تجارية ورخص سير مركبات ومعاملات حصر إرث وتصفية تركات، وغير ذلك الكثير أو سمسار معاملات. أي أنه "مسبع الكارات".

ومع أن اسمه حاتم، لكنه لا يمت بصلة قربى للشاعر العربـي القديم حاتم الطائي المشهور بالكرم، ولا يشبهه.

إخوته يدعونه - حتومة -. وزوجته تدعوه - حتم تم -. وتصف حالة نقوده بأن القرش الداخل إلى جيبه مفقود والخارج مولود، وعانت من ذلك الكثير، وأيامها معه ثلاثة أيام "شبعة وجوعة، ولوعة". وتطلق عليه أوصافا مثل "شمردح" و" طويل عكّا" من دون أن تعرف مصدر أو معنى الصفتين، وبأنه "مثل القط، يأكل وينط" ولا يكترث بأحد. وهو "مثل حمار المطران عاقل شيطان".

يشتهر حاتم بثلاث صفات هي قدرته العجيبة على التملص من أي مشكلة، وعدم وفائه بمواعيد إنجاز المعاملات، وقدرته على حل أعقد الحسابات بالرياضيات.

صار يتردد على الدائرة منذ تأسيسها. وكان كثير الإلحاح لإنجاز معاملاته والإسراع بها، رغم تعقيداتها وصعوباتها وكأن له حقاً شرعياً علينا باعتباره زبوناً قديماً. صبرنا على تصرفاته

وتحملناها بسبب الاحتلال الإسرائيلي للجنوب كي لا نتسبب بخسارته لزبائنه، وللمحافظة على مصالح الناس.

صادف في بداية تطبيق القبضة الحديدية الإسرائيلية أوائل عام 1985 أن كُسِرت أربعة حروف معدنية من حروف الآلة الكاتبة، وبذلك تعطلت تماماً عن الاستعمال. وكانت الطرقات شبه مقطوعة، ولم يكن ممكناً الذهاب إلى بيروت لشراء ماكينة طباعة جديدة، فطلبت من المهندس إسماعيل حبيب صديق أخي معن المقيم في بيروت، تأمين آلة طباعة جديدة من النوع (OPTIMA) أو الممتازة من صناعة جمهورية ألمانيا الشعبية الديمقراطية - ألمانيا الشرقية - فبحث ملياً عن آلة حتى وجد الطلب، ولكنه لم يستطع إرسالها، بسبب عوائق الاحتلال الإسرائيلي على الحواجز وتضييقه على التنقلات. وبقيت أنتظر، ولم أجد بداً من الصبر.

لكن الزبون حاتم بادر وأعارني آلة الطباعة التي لديه. وقال بأنه لا فرق بيننا، وبأنه جاهز دائماً للخدمة. وصار يكرر يومياً خدماته. هو يريد مصلحة الدائرة، استمرار العمل، والدكتيلو خاصته هي دكتيلو المكتب، إنه مستعد لتقديم المزيد. وشكرته مراراً، وصبرت على كلامه وعلى ما يمنّ به علينا، لأنه ما باليد حيلة. صار يحضر في أي وقت طالباً الإسراع بإنجاز معاملاته ولو بتخطي دور غيره. ومن دون نتيجة. ويطلب من شقيقتي نهى التي تعمل معي العناية بالدكتيلو والانتباه لها حتى لا ينكسر حرف منها فيتعطل الشغل. ويوصي بالعناية بها لأن هذه الدكتيلو جيدة وعملية، وغالية الثمن ولا يوجد لها نظير. وكنا نسمع كلامه ولا نرد، لنعود ونشكره. فيجيب: لا شكر، هذا واجب. حتى ضقت به ذرعاً، وقلت له: تستطيع أن تأخذ الدكتيلو إذا كنت بحاجتها، ولن ننزعج لو أخذتها، ونحن ندبر حالنا، والأمر بسيط، وعليك أن لا تشغل بالك.

لكنه أكد أن الغاية من كلامه هي مصلحة المكتب وليس أكثر. وسكت ليعود لاحقاً ويحدثنا عن محاسن تلك الدكتيلو، وعن غيرته على المكتب. ويطلب إنجاز معاملاته فوراً. وهكذا بقي الحال على هذا الموال.

في يوم الاثنين بتاريخ 29 نيسان/أبريل 1985 ذهبت باكراً إلى العمل، ووجدت الناس في حالة فرح وسرور عظيمين وبسعادة لا توصف. اليوم هو يوم عيد، فالقوات المحتلة الإسرائيلية انسحبت. زال الاحتلال وبقي الوطن. وصرنا ننعم ببهجة الحرية وعودة البلد إلى الوطن.

* * *

أقفلت الدائرة مبتهجاً بالتحرير وزوال كابوس الاحتلال. كان الناس يخرجون إلى الشوارع ويمشون مهنئين بعضهم بعضاً كما يهنئون أنفسهم. عند العصر وصل صديق أخي وصديق العائلة المهندس إسماعيل حبيب من بيروت مبتهجاً، وحاملاً لي معه آلة الدكتيلو الجديدة المنتظرة، والمشتراة منذ مدة، وبكافة تحسيناتها وزوائدها المفيدة. قمت مسروراً بوضعها في المكتب، وحملت دكتيلو حاتم فوراً، وأعدتها له شاكراً.

في الصباح التالي فوجئت أختي نهى بالدكتلو الجديدة مكان الدكتلو المستعارة. أخبرتها أنني أعدت لحاتم ماكينته بمجرد وصول الآلة الجديدة. ردّت بالمثل الذي يلفظون فيه حرف 'ق' باللهجة البدوية مثل حرف 'ج' المصري أو G باللاتينية، قائلة: "إن كان فراكْ البدوي بعباية، سوكْ العِبِي على حسابو".

فرحتنا فرحتان، فرحة بالتحرير والخلاص من إسرائيل، وفرحة بردّ الدكتيلو لحاتم وبالخلاص منه ومن ثرثرته. تسلم يداك يا أستاذ إسماعيل. - خيّ -.

* * *

بعد عشر سنوات حضر حاتم إلى الدائرة وأخبرنا بأنه في هذا اليوم صار عُمره 64 سنة. باركت له بعيد ميلاده. طلب تنظيم صك براءة ذمة منه لمصلحة وزارة الزراعة - قسم الأحراش، ولوزارة المال والدولة، بأن كافة حقوقه قد وصلته من وظيفته بالوزارة.

استغربت الطلب، لأني كنت أجهل بأن حاتم موظف بالزراعة وهذا خبر جديد أسمع به لأول مرّة. ولم نعرف إنه داوم يوماً في وزارة الزراعة أو فعل شيئاً. قلت له إنه يقبض مالاً لا حق له به، ويتقاضى أجوراً وتعويضات من دون قيامه بأي جهد أو عمل.

رد مجيباً: أنا موظف بالدولة من مطلع شبابي، لما كنت أعمل حاجباً في مكتب القائمة الشعبية الفائزة بانتخابات عام 1960. أقبض ولا أشتغل، ولو لم آخذ الوظيفة لأخذها غيري.

و"الشاطر ما يموت". نظمت السند، وقبضت الأجرة والرسم بعد ممانعة شديدة من حاتم، الذي عاد لتذكيري بجمائله الكثيرة، وإعارته الدكتيلو تلك الأيام الصعبة. ثم أخبر:

- ألا تذكر آلة الطباعة "الدكتيلو" التي أعرتك إياها أيام احتلال إسرائيل؟

سوف أعترف لك بسر. لقد سحبتها من مكتب نواب القائمة الشعبية دون أن يدري أحد بذلك، أو يحسّ مع أغراض أخرى. ألم تكن دكتيلو جيدة؟

* * *

منذ مدة كنا في مناسبة تقديم عزاء، لما حضر حاتم وجلس بالقرب منا، وصار يحدث كيف أنه يستمتع بالباقي من عُمره، بكل ملذات الدنيا ونعيمها، وبأنه بذلك يتودع من الدنيا، ويودع نفسه.

رد آخر قائلاً: لا تخف ولا تخشَ شيئاً. عزرايين - ملاك الموت - غير مستعجل. وهو لا يخرب بيته بيده. ليس هذا المجلس هو المكان المناسب للحديث بموضوعاتك. والعرب تقول "لكل مقام مقال".

* * *

الاثنين 13 نيسان/أبريل 1998، يوم ربيعي جميل

فوجئت قرابة ظهر يوم الاثنين من أحد أيام الربيع اللطيفة الباردة المنعشة، بعدد كبير من الفتيان والفتيات ينظرون من نوافذ دائرة كتابة العدل، متطلعين إلى المكتب محاولين استكشافه.

إن أكثر ما يبهج الإنسان اللبناني ويُفرح قلبه، رؤيته الزائرين والسواح في بلدته أو مدينته يروحون ويجيئون. فكيف إذا كانوا فتياناً صغاراً بعُمر أولاده! دعوتهم للدخول. تبسموا، وأخبروني أنهم تلامذة مدرسة في بلدة جبلية عالية من مصايف محافظة الجبل، جاؤوا برحلة مدرسية للساحل، بمناسبة قدوم الربيع.

لم يكن في الدائرة زحمة شغل وقتها، بل بضعة زبائن، استأذنني الناظر بالدخول. ودخلوا متهيبين للاطلاع على شغل كتابة العدل، بمرافقة أساتذتهم.

سألت الموظف أن يدعو جارنا القهوجي ربيع لتكريم ضيوفنا الشبان والشابات الصغار الأعزاء، وتقديم الضيافة لهم، على حساب دائرة كتابة العدل. رحب القهوجي ربيع بهم وأعلن أنه ومقهاه بخدمة جميع هؤلاء الطلاب الشاطرين الحلوين، وسألهم عن طلباتهم. وقدم لهم ولأساتذتهم المشروبات الباردة وأكواب الشاي والكاتوه والبيتي فور وسندويشات لذيذة ومآكل سريعة الإعداد.

فيما كان التلاميذ يشاركونني، ويشاركون الزبائن - الأصدقاء - بمراقبة تنظيم معاملات خفيفة وبسيطة مثل التدقيق بالهويات والأسماء ومراجعة النصوص المكتوبة والتدقيق بها، وسؤال المتعاقدين عن طلباتهم وقبولهم بها، - وهذه تعتبر أهم ركن بكتابة العدل - وأخذ التواقيع والبصمات، ومقدار الطوابع الواجب لصقها، وكيفية تعطيلها، بدوا بحالة من المرح، وغادروا مع المعلمين والمعلمات شاكرين سعداء.

خرجت عند انتهاء الدوام بصحبة أخي بشر، سعيداً وفرحاً بقدوم أبناء بأعمار أولادنا، وشارحاً له عن حضورهم درساً تطبيقياً بتنظيم سند رسمي، وكأن ملائكة من السماء قد حلوا في مكتبي، ومدينتنا. مشيت معه، مسروراً بعودة اللبنانيين للالتقاء والتواصل. سرنا على جانب الطريق بالطقس البارد وبأشعة الشمس الدافئة، مع نسمات الهواء الطلق تهب بين الحين والحين. كانت تفوح في الجو رائحة عطر زهر الليمون الذي تفتّح هذه الأيام. كنا نتحدث ونحن نسير:

- كم من بين هؤلاء التلاميذ الصغار، سيكون كاتب عدل وقاضية ومديرة وطبيباً ومهندسة وضابطاً، و.. وكيف سنعيد وصل مناطق لبنان.

فقال لي:

- تذكّر يا أخي صخر أن هذا اليوم هو الاثنين 13 نيسان/أبريل 1998، ويصادف الذكرى السنوية للحرب اللبنانية التي عصفت ببلادنا.

يا الله ما أجمل وألطف فصل الربيع، وما أحلى رائحة زهر الليمون. الله لا يحرمنا من رائحة الزهر.

قلت له: وهو يا أخي بشر، بداية أسبوع عمل وتعب، وكدح وعناء. فعلاً، لا شيء أحلى من هذه الرائحة.

رمضان كريم

حضر إلى دائرتنا في أول يوم من شهر رمضان شخص مدمن على الشرب اسمه رئيف، لتنظيم سند أمانة. كانت رائحة الكحول الطالعة منه مزيجا من السبيرتو والتفاح الفاسد الخامّ، وبالكاد استطعت تجنبها. خاطبني قائلاً:

- هل اليوم رمضان؟

- صحيح. اليوم هو أول رمضان. ولكن لماذا تسأل؟

- رمضان كريم. حتى أعرف حالي. هل أصوم اليوم أم أفطر. أم أكمل صيامي؟ ماذا تقول؟

- لا أعرف.

- هل أسأل المفتي؟

- افعل ما تريد. ولكن هل تعرف المفتي أو يعرفك المفتي؟

- نتعرف على بعضنا. هل ذلك حرام؟ جئتك لتنظم لي ورقة أمانة بقيمة مئة ألف ليرة.

سألته مستغرباً، وقد ابتعدت عنه أكثر لأتجنب رائحة أنفاسه:

- أمانة بقيمة مئة ألف ليرة، أو مئة ألف دولار أميركي؟

- أنت سمعتني، وجيداً. أنا لست سكراناً. مَنْ يعطيني مئة ألف دولاراً، أو حتى ألف دولار؟ الناس يعتبرونني سكراناً غير واعٍ وأطهوج (أهذي) بكلامي. رجاءً اسمعني يا أستاذ. نظم لي أمانة بقيمة مئة ألف ليرة. وأنا أعرف أن الأمانة تدفع وقت الطلب فوراً. فإما الدفع أو الحبس. أرأيت أنني واعٍ، ولست بسكران.

كانت رائحة الخمرة تفوح منه كلما نطق المزيد من الكلام.

قانونياً، لا يمكن تنظيم سند الأمانة لضآلة المبلغ، أو لعدم جدية الموضوع، ولأنه في حالة سُكر، ولا يجوز أخذ توقيع السكران أو الخيفان ولا الخرفان، ولا القاصر والسفيه والمجنون، وباقي الأشخاص فاقدي الأهلية. أجبته:

- لا يمكن تنظيم المعاملة لأن كلفتها خمسة وعشرون ألف ليرة وإلغاءها كذلك. فلا يبقى معك من المبلغ سوى خمسين ألف ليرة. هذا غير منطقي وغير عادل.

هنا دخل القهوجي الجار مصطفى، حاملاً فنجان القهوة وقنينة ماء باردة. وسألني إذا ما كنت صائماً. أجبت بأنني صائم. ردّ قائلاً: رمضان كريم.

طلبت منه أن يضيّف القهوة والماء للسيد رئيف، وأن يأخذه ليجلس بعيدا قرب الشباك.

شرب رئيف القهوة والماء، قائلاً أثناء المغادرة إنه سيعود في أول يوم بعد العيد الصغير "الفطر" لتنظيم سند أمانة بمبلغ مئة ألف ليرة.

* * *

في صباح أول يوم عمل بعد العيد، كان صلاح المنادي على الموتى في المدينة، ينعي بميكروفون سيارته رئيف، محدداً موعد الدفن ومكان تقبُّل التعازي.

تشمع كبد رئيف من الشراب. وكان في مرحلة متقدمة من المرض، ولا شفاء منها. دخل المستشفى لأيام، وبقي في حالة غيبوبة، واشتدت حالته، ومات.

حزنت عليه، وترحمت، وتمنيت العلاج لكل المدمنين، والشفاء.

سيارة كركوبة ـ حديد كبّ للبحر

نظمت وكالة بيع سيارة من البائع للمشتري. سألت البائع: هل قبضت الثمن؟ وهل تريد شيئاً آخر غير تنظيم الوكالة؟

أجاب بأنه سيقبض الثمن. وسيوقّع، ولكنه يريد قبل أي شيء تنظيم معاملة إخلاء سبيل(رفع مسؤولية) من المشتري عن السيارة، وان يعترف المشتري، ويقر بها بأنه اشتراها باعتبارها ـ سيارة كركوبة، ومجرد حديد كبّ للبحر ـ. استغربت طلب تدوين هكذا عبارة، وأخبرته أن التعبير غير مناسب، ومعيب واستعماله غير لائق، ولا تصح كتابته هكذا، لعاميته وصرامته، وكأن المشتري هنا يعتبر السيارة بحالة اهتراء وغير صالحة للخدمة ميكانيكيا أو للسير، أو مجرد خردة، وهذا غير صحيح ومخالف للواقع، ولأبسط شروط البيع والشراء. مع إصرار البائع على موقفه وتمسكه بعبارته، وبعد جدل ونقاش استمرا وقتاً، أديا لانزعاج الحاضرين وانزعاجي، ومع إصرار المشتري على رفضه، استطعت بصعوبة إقناعه بكتابة تعهد مسؤولية من المشتري، ينص على أنه اطلع على وضع السيارة، واستلمها بحالتها الراهنة وكما هي ـ. قبض الموكل. ووقع الوكالة. ووقع المشتري على تحمل المسؤولية بانه استلم السيارة بحالتها الراهنة.

سألني المشتري أن أبارك له بالسيارة.

قلت له: ـ مبروك ـ، لكن التعبير المستعمل في حالة بيع سيارة أن تُقال عبارة "الله يبعد عنها الضربات".

شكرني قائلاً: آمين. وماذا تقولون أنتم كتاب العدل عادة؟ ماذا تقولون للبائعين والمشترين عند تنظيم المعاملات؟

أجبته: أنا شخصياً أفضل أن أستعمل تعابير - لا أعرف. لا يخصني. يصطفلوا. شوفوا غيري وحلّوا عني -، لما أجد المتعاقدين عنيدين ومصممين على إتمام معاملاتهم بشكل غير قانوني أو بأسلوب فجّ، ولا يقتنعون برأي أحد، ويصرّون على طلب غير ممكن، ويرفضون سماع آراء أصحاب الرأي والخبرة، متمنياً الابتعاد عن هذه الأجواء والخلافات.

ضحك الحاضرون، وتابعنا الأشغال.

إقرار بيع سيارة

بخصوص إقرار بيع سيارة فهو عمل غير قانوني وممنوع صراحة بقوانين السير المتعاقبة السابقة واللاحقة. ولطالما كافح كتاب العدل أزمانا لمنع هكذا معاملات وعدم تنظيمها وأقنعوا زملاءهم بضررها. وأتذكر هنا مساعي كاتبـي العدل الزميلين عبد الرحمن الأنصاري وحسين حرب بمكافحتها والتخلص منها، ودأبهما المتواصل لتصحيح مسارات المهنة.

حدث منذ مدة قريبة أن تقاعد دركي، وقبض تعويضه، واشترى سيارة مستعملة، بموجب إقرار بيع سيارة، استناداً إلى وكالة بيع سيارة. فالقانون يمنع تنظيم وكالة بيع سيارة ثانية تكون مستمدة من وكالة بيع سيارة أولى، فيلجأ البعض لإقرار البيع. وسبق لهذا الدركي أن حضر إلى دائرتنا، فاعتذرت له عن تنظيم الإقرار المذكور. أحب الرجل قيادة سيارته قبل شروق الشمس، بعد آذان الفجر، ولم ينتظر طلوع الضوء. كان متلهفا لسوقها. كانت الكهرباء مقطوعة كعادتها في هذا البلد. وقاد سيارته منتشياً، ولكنه اصطدم بدراجة نارية مخالفة أتت عن يمينه، ولم تكن مضاءة، فلم يرها. مات راكباً الدراجة نتيجة لنزيف بالرأس، الأول لتأخر مجيء الطبيب المعالج، والثاني لخروجه من المستشفى قبل إتمام العلاج. فدخل المسكين الحبس. وبعد أن خرج من السجن دفع قيمة التعويضين لأهل الشابين القتيلين من جيبه ومن تعويضه، لأن شركة التأمين رفضت أن تدفع له قرشاً واحداً. فصك التملك، والذي هو - إقرار بيع سيارة - المنظم عند كاتب عدل، غير قانوني! وخسر الدعوى بالمحكمة.

فعلى من يكون الحق وتقع المسؤولية؟ أهو على الكهرباء المقطوعة، أم على راكبـي الدراجة غير المضاءة، الشابين الصغيرين الآتيين مخالفة من جهة اليمين واللذين لم يضعا الغطاء البلاستيك (الكاسك) على رأسيهما، أم على إهمال المستشفى التي قصرت بالعلاج وأهملت العناية

بالشابين الفقيرين - لأنهما فقيران - أو على كاتب العدل الذي نظم إقرار البيع، أو على شركة التأمين، أم القضاء والقانون اللبناني؟ أم أن الحق هو كله على الطليان؟ أو أنه القضاء والقدر!

وأما تعبير "كل الحق على الطليان"، فقد جرى استعماله أثناء الحرب اللبنانية في شرق بيروت وغربها على السواء بكثرة، في إشارة لتحميل مسؤولية ما يجري في البلاد للسلاح الفلسطيني دون سواه، وكأن اللبنانيين غير مسؤولين بشيء عما صارت إليه الأوضاع.

وأساس المثل هو أن راعيا ساق للمرعى قطيعا من الغنم البلدي والطلياني، وغفا بظل شجرة فجاء الذئب وأكل حملاً، فأنّبه صاحب القطيع وزجره على إهماله وتقصيره، فردّ مدافعاً عن نفسه بأن الحق كله هو على الطليان، لأن الغنم الطلياني المعلق برقبتها أجراس ظلت ترن بأجراسها، حتى سمعها الذئب من بعيد، فجاء والتهم الحمل المسكين، في إشارة إلى خلوه من أية مسؤولية، وتحميلها للغير.

ألقاب وأنساب

I

نصف مليون معاملة وفوق المليون احترام

نظمت خلال عملي بكتابة العدل لمدة 34 عاما وثلاثة شهور، وحتى تاريخ تقاعدي بتاريخ 10 تشرين الثاني/نوفمبر 2014 أكثر من نصف مليون معاملة، استعملت فيها دائماً ملايين عبارات السيادة والاحترام للأشخاص المعنيين بها وتعبيراً عن الاهتمام بأشخاصهم مثل: السيد، السيدة، الآنسة. تشبهاً بتسميات: السيد المسيح، سيدنا محمد، السيدة العذراء، والسيدة خديجة. وكنت أشير إلى بعض الصفات والألقاب والمهن مثل الأستاذ، المهندس، المحامي، الدكتور، الصيدلي، المختار، وغير ذلك تدليلا على أهمية الأشخاص والصفات التي اكتسبوها بعلمهم وكدّهم وأهميتهم. وكنت عند تلاوة كل نص أذكر تعابير السيادة والاحترام بصوت واضح، شاعراً بالرضى كأننا في مجتمع أوروبي يحترم المواطنين ويشير لهم بكلمات المساواة: مستر، مسز، مس، مسيو، مدام، مدموزيل. ولا نقل عن مجتمعات الغرب باحترام الإنسان، لأؤكد وجود مساواة طبيعية بين البشر.

II

أنساب العرب

كان شخص من آل الفضل يعتمر على رأسه الحطّة والعقال (غطاء الرأس العربي)، ويتكلم بلكنة بدوية لطيفة، ينظم معاملة بيع شقة في دائرتنا لموظف يعمل كاتباً في المحكمة الشرعية اسمه

يحيى، ويضع على رأسه طربوشاً أحمر مربوطا بقماشة خضراء مطوية طويتين، كناية على أنه من - السيّاد - الموسويين المتحدرين من نسل النبـي محمد (صلى الله عليه وسلم) من ابنته السيدة فاطمة الزهراء، وهذا الموظف هو من القراء ومن الحافظين لتاريخ وأنساب العرب ووقائعهم وأيامهم وأشعارهم ونسابة عالم بأنساب العرب. كنت أتلو عليهما صك البيع وأسألهما هل يوجد عندهما أي اعتراض؟ أجابا بالنفي، وبأنها صحيحة، ووقعا مع الشاهدين.

هنا وعند مصادقة العقد سأل موظف المحكمة الشرعية يحيى، الشخص البدوي من آل الفضل: هل أنتم من قبيلة الفضل، ونسبكم يعود إلى الفضل بن ربيعة وجدكم هو عيسى بن مهنا؟ ومساكنكم في نواحي بادية الشام وحوران ولكم أقرباء فيها؟ أجابه الفضل: كلا يا سيد يحيى، لسنا منهم ولم نأتِ من النواحي التي ذكرت، وإن نكن على صلة قربى معهم، وأتينا من الجولان السوري، ونحتفظ بشجرة نسب العائلة، وأستطيع أن أذكر نسبـي لغاية الجد العاشر غيباً. والأمير محمد الفاعور الذي استضاف الأمير عبد القادر الجزائري هو ابن عمّ جدّي. وذكر له نسبه وحتى الجد العاشر.

أخبره السيد يحيى الموظف: إذن فإن عشيرتكم الفضل هي من - عرب الفاعور - التي تنحدر من نسل الفضل بن العبّاس بن عبد المطلب، ولا تنحدر من الفضل بن ربيعة من قبيلة طيء الذين أتوا في عصر المماليك. أو الفضل بن العباس ابن الإمام علي، والذي كانت تحمله جدته أم البنين، كما يُروى في مجالس عاشوراء. وقد ورد ذكرها في كتاب أنساب الأشراف لابن حزم الأندلسي.

أجبت مصححاً: بل هو من تأليف أحمد بن يحيى البلاذري يا سيد.

رد مجيباً: صحيح. ووردت كذلك في كتاب جمهرة أنساب العرب تأليف ابن حزم الأندلسي.

وتابع شرحه: أنتم من الأشراف وهاشميون مثلنا، وتنحدرون من نسل العبّاس بن عبد المطلب عمّ النبيّ. ولكنكم لستم من - السيّاد - ونحن أعلى منكم درجة وشرفا. ولكننا كلنا أولاد عمّ، هاشميون، أشراف.

- أحقاً ما تقول يا سيد يحيى؟ سأل الفضل.

رد السيد يحيى: أكيد وصحيح، أنا حافظ جيد للأنساب وساعدني حفظي بتنظيم معاملات حصر الإرث وتسلسل المواريث، ومعرفة الأنساب مثل الحبل الذي يربط الولد بأمه وأبيه فلا يتوه، ويرده إلى أسلافه الشرفاء فيقتدي بسلوكهم. سوف أعطيك شجرة عائلتكم ونسبكم وصولاً لعمنا العباس، وقرابتكم به. وصار يذكر له نسبه وصولاً إلى العباس بن عبد المطلب. ثم قال له: وكلنا أولاد آدم وحواء. وعلى كل حال "أصلك فعلك".

وكما قال في ذلك الشاعر عمر زين الدين بن الوردي:

لا تقل أصلي وفصلي أبداً

إنما أصل الفتى ما قد حصل

قيمة الإنسان ما يحسنه

أكثر الإنسان منه أو أقل

قام عمران الفضل يسلم على السيد يحيى شاكراً، لأنه كشف له الغطاء عن أصله، وأماط اللثام عن معلومات كان يجهلها.

وخرج الرجلان، وقد أنجزا أشغالهما. وخرج الشاهدان وسألني أحدهما: ما هي الحاجة لحفظ كل تلك الأنساب وقراءتها عن غيب، ما دام أن أصل الإنسان فعله وعمله؟ أجبته: علم الأنساب من علوم العرب الماضية ومن علوم التاريخ، التي تساعد بمعرفة القبائل والعائلات وبفهم أحوال المجتمع والناس، ولكن التفاخر بالأصول الأرستقراطية وبشرف ووجاهة العائلات العريقة،

والأحساب والأنساب هي تكريس لمركز ما، وهي تحجر وجمود، لا تفيد المجتمع وأصحابها بشيء، ولكن الشيء الإيجابـي يكون بالتمسك بأخلاق وفضائل الجدود، لا التفاخر بالأصول.

اسم لبناية مفرزة

حضر المهندس الأستاذ شريف بوكالته عن السيد منصور طالباً تنظيم محضر إنشاءات وإفراز بناية يملكها موكله السيد منصور، إلى حقوق وأقسام مختلفة، أي إلى شقق ومحلات مستقلة، لإصدار سندات تمليك لكل قسم، وتنظيم معاملة إدارة العقار أو نظام الملكية المشتركة للبناء، وهو النظام الذي يحدد حقوق وواجبات الأقسام، ونسبة كل قسم من أصل 1000، وتشكيل هيئة لجنة البناية وصلاحياتها وطريقة عملها وعمل الجمعية العمومية وكيفية انتخابها. وهذا النظام شرط لازم لفرز البناء إلى حقوق مختلفة، وبعد صدور السندات يتم فراغ وتسجيل ملكية الشقق والمحلات بأسماء أصحابها.

اطلعت على المستندات المبرزة من الوكيل، والتي هي عبارة عن سند الملكية، وقيمة تأجيرية - تخمينية - للمحتويات صادرة عن وزارة المالية، ورخصة الإسكان الصادرة عن التنظيم المدني، وإفادة بلدية بالمحتويات وخرائط، بالإضافة للوكالة. وبعد التأكد من صحتها طلبت من الموظف في الدائرة السيد ذو الفقار شمعوني وينادونه - زوزو - كتابة معاملة الإنشاءات والفرز ومعاملة الملكية المشتركة. وصار زوزو يستوضح بعض الأمور من المهندس شريف، وانهمكت باستخراج حصة كل قسم من أصل الألف. واستخراج النسبة الألفية هو من أصعب المسائل بمعاملات فرز الأبنية، ليتبين لنا أن هذه المسألة الرياضية أسهل بكثير من مسألة إعطاء اسم للبناية.

سأل زوزو المهندس شريف عن الاسم الذي يرغب بتسمية البناية به ليكتبه. فردّ المهندس بأنه لم يفكر بالأمر من قبل، وسألني عن الاسم الذي أقترحه عليه. فأجبته بأن الأسماء كثيرة، ومعروضة في الأسواق مجاناً، ولا يترتب عليها أية ضرائب أو رسوم.

- تستطيع أن تسميها بأسماء يألفها الناس وتعجبهم مثل - الأرزة - الصنوبرة - النخلة - السنديانة، أو - الوردة - الياسمينة - وما إلى ذلك من أسماء الأشجار والأزهار.

فردّ بأن أصحاب البناية لا يهتمون بالزرع أو النباتات والبيئة، قائلاً: أعطِنا اسماً آخر.

قلت له أن يسميها باسم يعبر عن حالة نفسية تبعث على الارتياح مثل - الوئام - الوفاق - الصلح - الابتسامة -. فرفض لأن هذه التسميات بعيدة عن الواقع، فأصحاب الشقق المشترون كثيرو النكد والمشاكل والخصومات، وقد تعب كثيراً بإصلاحهم لحل مشاكلهم مع البائع ومع بعضهم، لإتمام الفرز. وطلب نسيان تسمية الابتسامة.

سألته عن رأيه بتسميات مثل - الكرم - العطاء - الوفاء -! فأجاب بأنها غير واردة. أما تسمية الوئام فلا محل لها مطلقاً.

قلت له أن يسميها - المحبة - فرفض بشدّة وقال: ولا تقترحوا اسم - السعادة - فسكانها غير سعداء، لم يعرفوا يوماً طعماً للفرح ولا للسرور، فلا تتعبوا قلوبكم.

وصرنا نقترح عليه أسماء، ويرفضها لعدم ملائمتها، شارحاً الأسباب وموضحاً أن سكان البنايات هذه الأيام لا ينسجمون بعضهم مع بعض، ويعيشون في مساكنهم بدون تعاون ومعرفة الحقوق والواجبات.

هنا تدخل مهندس آخر هو الأستاذ حسن، الذي صادف وجوده وقتذاك في المكتب، وحضر المناقشات كلها. فردّ قائلاً:

- الذي يستطيع منكم يا شباب إعطاء اسم مناسب للبناية سيربح ويفوز بشقة مجانية جائزة له. شرط أن يكون اسماً ظريفاً. هيا يا زوزو أرنا شطارتك وهات اسماً وخذ الشقة مجاناً.

ضحك الجميع، وضحك زوزو الذي اقترح تسمية البناية - الجيران الأعداء - وضحكوا ثانية. وقال وكيل صاحب البناية المهندس شريف: هذا الاسم للأسف مناسب، ولكنه سيؤدي بي للشطب من نقابة المهندسين، أو أنال عقوبة تأديبية..

ثم قال: سوف تكون - بناية الجيران -. شكرا يا زوزو، فهذا هو الاسم المناسب والطبيعي، لعل أصحابها يدركون يوماً أنهم جيران، فيتصالحون ويزورا بعضهم بعضاً. إنهم فعلا جيران. وتلك حقيقة ثابتة لها قيمتها الكبيرة في بلادنا. أرجو أن تسامحوني، لأنني أزعجتكم، فأصحاب الشقق أتعبوني كثيراً حتى أنجزت لهم أشغالهم.

وإن أخطأ إليك أخوك

كنت أُطالع مساءً بالعهد الجديد، لما أعجبتني من إنجيل متى، الآيات:

"وإن أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما. إن سمع منك فقد ربحت أخاك". إنجيل متى إصحاح 18 آية 15.

"الحق الحق. أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء. وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء". متى إصحاح 18 آية 19.

"حينئذ تقدم إليه بطرس وقال كم مرة يخطئ إلي أخي وأنا أغفر له. هل إلى سبع مرات. قال له يسوع لا أقول لك إلى سبع مرات بل إلى سبعين مرة سبع مرات". متى إصحاح 18 آية 22.

تناولت ورقة وقلماً ودونت الآيات. قلت مفكراً: أستعين بها يوماً في عملي. أخذتها صباحاً، ووضعتها في جارور مكتبـي، وبدأت العمل.

حدث ذلك في أواسط تسعينيات القرن الماضي، وكانت العقارات في هبوبها وفورتها وارتفاع أسعارها. كنت في أواسط الأربعينات، وكان إيليّا الثريّ المغترب في غرب أفريقيا، وهو من زبائن المكتب وفي أواسط الخمسينات من عمره، لما قدِم مرّة إلى دائرتنا، وروى لي كيف ضحك أخوه الأكبر بطرس على أبيه واستغفله، وقام وأخذه إلى دائرة أحد الكتاب العدل، وطلب تنظيم عقد تفرّغ بموجبه الأب للابن عن عقار البيت والحديقة التي تحوي شجرات ليمون رائعة وأزهاراً ووروداً، والذي يساوي مبلغاً كبيراً من المال، ويمكن بناء عدة أبنية عليه وبيعها شققا

مفرزة. وقام بتسجيل المعاملة بالدوائر العقارية. لكن السند لم يصدر لأنه لم يسدِّد رسم الفراغ البالغ ($5.000).

سألني: ماذا أفعل لأسترجع العقار لصاحبه وأردّه له، وأي محامٍ أوكل؟ هل ألجأ إلى القضاء الجزائي بداية كما نصحني البعض أم للقضاء المدني؟ أطلب رأيك بالأمر. تصور أنني أعيل أبي وأمي، وبطرس يأكل ويشرب من بيتهما ولا يقدم شيئاً.

قلت له: تذهب إلى الدوائر العقارية، دون معرفة أحد، ولا حتى أخوك، فتدفع رسم الفراغ عن أخيك، البالغ 5 آلاف دولار أميركي، وتستلم السند وتعطيه لأخيك وتعطيه فوق ذلك 5 آلاف دولار أميركي. ولا تفعل شيئاً آخر.

نظر مستغرباً. فأخبرته:

- لو اشتكيت على أخيك بطرس فسوف تزرع بذور الشِقاق والخلاف وتؤسس لعداوات في العائلة، وسيقتدي أولادك بك. وبالتأكيد سوف تخسر أخاك وأباك وتخسر عقار البيت.

"ومن يزرع الريح يحصد الزوابع". وأبوك واعٍ، لم يخرف بعد، وأنا أعرف.

أخرجت الورقة من الجارور، وقرأت له آيات الإنجيل التي دونتها منذ أيام.

قلت له:

- نحن نحب الأرض، وحب الأرض يكون بالاقتناء، وبالمحافظة عليها سواءً أكانت بيدنا أم بيد شقيقنا. وجذورنا تمتد عميقا في تراب بلدنا منذ الأزل ولم تزل.

لم يجب، وغادر من دون إلقاء تحية الخروج.

عاد إيليّا بعد مدة مصطحباً أخاه الكبير بطرس الذي شكرني على نصيحتي وموقفي، وشكر أخاه الأصغر لقيامه بإنجاز المعاملة ودفع الرسوم، وعلى هديته المالية. وقال بأنه أخذ البيت من أبيه ليبقى بيتا لكل العائلة، وحتى لا يتحول إلى بناء تجاري، ولن يفرِّط به، وسيظل بيت العائلة للأبد.

بعد عشرين عاماً وكنت قد تقاعدت، وفيما كنت أسير على الرصيف، التقيت برجل تقدم نحوي مسلّما بحرارة وشوق. عرفني بنفسه بأنه بطرس شقيق إيليّا الذي نصحته يوماً أن يساعد

أخاه، وسمع نصيحتي. فسألته عن حاله وأحوال أخيه إيليّا، فأخبرني بأن إيليّا مرّ بظروف صحية صعبة، ومرض مرضاً خطيراً، وأنه داوم بالسهر عليه أياما، ودعا الله ليشفيه ويبقيه لأولاده، واستجاب الله دعاءه. وكان يناشده ليقوى ويشفى. فأوصاه أن يحافظ على بيت العائلة ولا يبيعه، لأنه من أثر أبيه وأمه، فأجابه:

- بل أنت الأثر الغالي الباقي لي من أبـي وأمي يا إيليّا. سوف أحافظ على البيت بالتأكيد. لكن انتبه أنت لنفسك وصحتك يا أخي.

لقد استجاب الله دعائي، وشفي إيليّا. والشكر لله.

"خيّ. ما أحلاك يا خييّ يا ابن أمي وبييّ".

قضايا التاجر الملاّك خليل

دعاء امرأة على كاتب عدل وعلى أخيها

I

في يوم الاثنين بتاريخ 19 تشرين الأول/أكتوبر 1992، توفيت أمي. ماتت ليلاً. وسكّرت الدائرة وعطّلت الشغل بقية الأسبوع. كانت أيام حزن وأوقاتاً صعبة ومؤلمة. أن يخسر الإنسان أمه يعني أنه خسر أهم ما في الحياة.

وكما قال جبران: "إن أعذب ما تحدثه الشفاه البشرية هو لفظة "الأم" وأجمل مناداة هي: يا أمي، كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحب والانعطاف، وكل ما في القلب البشري من الرقّة والحلاوة والعذوبة. الأم هي كل شيء في هذه الحياة، هي التعزية في الحزن، والرجاء في اليأس، والقوة في الضعف، هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران، فالذي يفقد أمه يفقد صدراً يسند إليه رأسه ويداً تباركه وعيناً تحرسه.. كل شيء في الطبيعة يرمز ويتكلم عن الأمومة، فالشمس هي أم هذه الأرض ترضعها حرارتها وتحتضنها بنورها، ولا تغادرها عند المساء إلا بعد أن تنومها على نغمة أمواج البحر ترنيمة العصافير والسواقي"..

اجتمع الأهل كلهم في بيت العائلة الكبير يتقبلون العزاء، ويواسى بعضهم بعضاً. كنا نفترق ليلاً ونعود إلى بيوتنا. في مساء اليوم الأول رفض ابني الصغير عصام ترك حضن أمه وبقي ملتصقاً بها. كان عمره لم يتجاوز السنة والأربعة شهور. وكان يومها يحدق إلى الجميع محاولاً معرفة أسرار الحزن الكبير في العيون والوجوه.

عدت ليل الأحد - الاثنين بعد ذكرى الأسبوع إلى منزلي مع أفراد أسرتي. كانت الكهرباء مقطوعة. والعتمة تملأ كل الجهات، والسكون شاملاً ويضفي وِحشة، ومن البعيد كانت تصل أصوات موتورات كهرباء خفيفة فارضة مزيداً من الحزن على الأماكن والأشياء.

في مدخل البناية، كان أشخاص ينزلون عن آخر درجات السلّم، وكان يتبعهم شخص يشتغل بالمعاملات العقارية - سمسار معاملات - وامرأة تسير بالخلف. تقدم أحدهم نحوي واسمه خليل، وهو تاجر وملاّك بساتين، ومن غير إلقاء التحية قال لي: صعدنا درج بنايتكم، وقرعنا الجرس وخبطنا الباب بشدة، بدون أن يفتح لنا أحد، أو يكلمنا من وراء الباب.

هل مصعدكم معطل؟ جئنا بشغل مستعجل.

أجبته: نحن آتون للتوّ من بيت العائلة. اليوم كان ذكرى أسبوع على وفاة أمي. والكهرباء مقطوعة، ولا يوجد أحد في البيت ليردّ.

رد قائلاً: أفهم من كلامك أنك لن تشتغل لنا بمعاملتنا. وعلى كل حال "الطيب خير من الميت".

غادر التاجر خليل مع جمعه من دون كلمة توديع، ولا عبارة مواساة، ولحقه الباقون، من دون أن ألمح شيئاً في الظلام.

صعدنا الدرج المعتم، وأضأت مصباح الإنفرتور (البطارية الكهربائية المشحونة) وجلست على الكنبة الكبيرة، شاعراً بألم وحزن عظيمين. آلمتني تصرفات هذا التاجر وكلماته. كما لو أن سكيناً أُغمد في صدري، وشعرت بوجع في قلبـي. جلس أولادي عزّة وحسن وعصام ملتفين حولي بعاطفة وحنان. تماماً كأول يوم عدنا من مجلس حزن الأهل لمّا جلس الصغير عصام في حضن أمه باحثاً عن الأمان والسلام. لم أعرف هل كانوا يطلبون مني العاطفة أم جاؤوا يمنحونني إياها، أم الأمرين معاً؟ رأتهم زوجتي ناديا، فتقدمت وجلست معنا تقدم لي عبارات الحب والعزاء.

صباح الاثنين، في اليوم التالي، كنت أجلس في مكتبـي أشعر بالدفء والإلفة والحنان مع دفاتري وسجلاتي وأوراقي وآلات الطباعة، ومع الموظفين أختي نهى وحسين عرب قريبـي وإبراهيم بيطار الذي صار لاحقاً مختاراً، والجيران والزبائن، وأستمد منهم الحب والمواساة.

II

مرت مدة. ثم حضرت امرأة خاطبتني بتوتر وانفعال بأنني مسؤول عن اغتصاب أخيها لمالها وميراثها، لأنني أخذت توقيعها بدون أن أسألها هل قبضت الثمن؟ وبأنها لن تسامحني.

- بالطبع أنا لم أفعل ذلك، ولا أفعله، وأنت مخطئة. أجبتها.

لكنها أصرّت على كلامها وأنني تواطئت مع أخيها ومع المشتري، وهي لم تقبض الثمن. قالت لي: جئتك ليلاً مع أخي والمشتري خليل والسمسار، وأخبرتنا بأنك في حالة حِداد على وفاة أمك، وكانت الكهرباء مقطوعة ولم يكن في البيت أحد، وحضرت في اليوم التالي إلى مكتبك، ووضعت بصمة إصبعي الصغير(الخنصر) على أوراق كثيرة، ولم أكن أعرف على ماذا كنت أوقع، وحضرتك أيها الكاتب العدل لم تسألني شيئاً، بل كنت تقول لي ابصمي هنا وهنا، وهناك. أنت اتفقت مع أخي وتتحمل المسؤولية مع المشتري، ومع أخي الذي سلبني حقي ولم يدفع لي الثمن، ولن أسامحك.

تذكرت ما حصل ليلاً مع الزائرين وقسوة المشهد في ذلك الليل المظلم. أكدت لها أنها لم تأتِ في اليوم التالي، ولا في الأيام التي بعده ولم يأتِ التاجر خليل. فتحت لها السجل اليومي، وصرت أقرأ لها أسماء أصحاب المعاملات وابنتها تتابع معي، وعدت أؤكد لها بأنها مخطئة تماماً، وأنني لم أرَها ولم أرَ أخاها أو المشتري الملاّك خليل، وأنا متأكد، وشرحت لها أن الوصف الذي أعطته للمكتب لا ينطبق على وصف مكتبي. وسألتها: هل معك أية صورة عن المعاملة التي تشكين منها؟ فأخرجت صورة من داخل كيس نايلون تحمله عن عقد بيع ممسوح منظم منها لأمر شقيقها.

أخبرتها أن الكاتب العدل الوارد اسمه في المعاملة المشكو منها هو شخص آخر غيري، وليس أنا.

قالت بعناد: أنا متأكدة، إنه أنت. أنا لست مخطئة. أنت من أخذ بصمتي.

ردت ابنتها قائلة: كلام الأستاذ صحيح يا أمي، والذي أخذ توقيعك هو شخص آخر.

وقفت المرأة وأدارت وجهها نحو القبلة ورفعت يديها للسماء، وصارت تدعو على أخيها والمشتري والكاتب العدل الذين ظلموها: ليته يصيبكم. ينيبكم، بكل قرش سلبتموه مني، إن شاء الله تدفعون به ثمن أدوية أنت يا أخي يا ابن أمي وأبـي، والمشتري خليل والكاتب العدل. وإن شاء الله تأكلون بكل قرش من مالي غصة ولوعة. حقي عند الله، وأنا وقفت مالي لأبـي الفضل العباس. الله لا يشبعكم من المصاري.

نهضت أختي نهى وتوجهت نحو المرأة الغاضبة الساخطة طالبة منها أن تتوقف عن الدعاء عليّ، فذلك شيء لا يُطاق وأمر لا يُحتمَل.

أخبرتها أن المرأة لا تدعو عليّ بل على كاتب عدل غيري، تقول إنه ظلمها، وتستنزل السخط عليه وعلى أخيها وعلى المشتري. ولا شأن لي بما تقوله أو علاقة. هي تفش خلقها (تنفّس عن غضبها).

ردت قائلة: حتى لو كان ذلك صحيحاً، فلا يجوز في مكتبنا أن يسب أحد شخصاً آخر. ماذا سيقول عنا الناس لو دخلوا وسمعوا ذلك؟ وربما كان كلامها غير صحيح.

قلت لها بأن كلامها ربما يكون صحيحاً، أو غير صحيح، ولكن لا يمكن مجادلتها وإقناعها، وبالكاد استطعت إقناعها أنه لا دخل لي بأمرها، وإلا سوف تظن أنني متواطئ معهم، وأغطّي عليهم.

إسقاطات في ظهيرة يوم أحد صيفي

كنت أشتغل أيام الأحد بنصف دوام من الساعة العاشرة صباحاً حتى الواحدة ظهراً، باعتبار أن القانون يسمح بذلك، وكنوع من النشاط والمنفعة والخدمة والتسلية. كنت عائداً ظهر يوم أحد حار من أيام شهر آب، أعبر محلة الآثارات مستمتعاً بحرارة الشمس اللاهبة، ومالئاً من ضوئها، ناظراً إلى السماء الزرقاء وشجرات الكينا العملاقة الخضراء مستعجلاً لأسير بفيئها في ذلك الهجير، عندما تذكرت أنني نسيت النقود في الجارور. عدت إلى المكتب، ووجدت المحامي الأستاذ عمر آتياً يريد تنظيم معاملات إسقاط عن السيد خليل، والسيد خليل تاجر وملاّك، وهو من الأشخاص الذين لا

يتعاملون مع دائرتنا. وهو ذاته التاجر الذي جاءني ليلاً برفقة أشخاص لتنظيم بيع عقار، وكنت في فترة حداد وحزن لوفاة أمي، وتكلم معي بطريقة فظة، ولم أنظم له حينها شيئاً.

كان بحوزة المحامي عمر ست وكالات من ستة أشخاص تتضمن نصاً قضائياً واحداً بالادعاء على السيد خليل بمادة شيك دون رصيد، والإسقاط والإبراء والقبض والرجوع إلخ. عدت وفتحت المكتب وأخبرته بأنني مستعد لتنظيم إسقاط واحد عن جميع موكليه الستة بمعاملة واحدة، ويتعذر عليّ طباعة ستة إسقاطات الآن، ولا يمكنني التأخر. سألني عن مقدار رسم كل إسقاط. فأخبرته. فردّ قائلاً إنه سيدفع لي المبلغ الذي أريد، وأنه يطمع بتعاوني لأن النائب العام أصرّ على تنظيم إسقاط عن كل شخص بمعاملة على حدة حتى لا يضم الدعاوى مع بعضها، وكي لا يبقى السيد خليل موقوفا في فصيلة درك المدينة لليوم التالي، فيتم ترحيله لقاضي التحقيق، وتتعقدّ المسألة. وهو مستعد أن يدفع لي ما أريد.

أجبته بأن المسألة لا تتعلق بالمال، بل بضيق الوقت. فأصرّ على طلبه لأن الأمر ضروري وهام ولن ينسى لي هذا الجميل. اتصلت بأهلي، وأخبرتهم أن لا ينتظروني على الغداء، فقد أتأخر. ردّوا بأنهم سينتظرونني ولو تأخرت.

تمّ تنظيم الإسقاطات والتوقيع عليها ومصادقتها. ودفع المحامي المبالغ المتوجبة. وشكرني مثنياً على جهودي وخدماتي في هذا الوقت الحرِج، وبأنني شريك معه بمصالحة الناس، وما فعلناه هو عمل خير. تابعت طريقي، ولحقت بأهلي.

ظهر اليوم التالي كان السيد خليل يوقّع في دائرتنا وكالة بيع لسيارته الجديدة الفخمة الغالية الثمن. أدركت فوراً أنه يريد سداد بقية ديونه. فتح معي باباً للكلام وأخبرني أنه هو من بعث لي يوم أمس المحامي لتنظيم الإسقاطات، لأنني أولى من غيري بالأجور والاستفادة، وأحق بها. لم أعلِّق بحرف وبقيت ساكتاً.

قال: أنا لا أنظم معاملات تخصني إلا في مكتبك!

ولما لم أجب، سألني: لماذا لا تردّ؟

أجبته: الحمد لله على السلامة.

ردّ قائلاً: الله يسلمك.

رمزي وقصته

رمزي صديق قديم، من أيام المدرسة التي جمعتنا سوياً يوماً من الأيام، مع اللعب وأحلام التغيير وتطوير برامج التعليم وإصلاحها، وغيرها من أفكار الشباب وحماسه.

ويكبرني بعام، وأعلى مني بصف.

درس رمزي في أول السبعينيات إدارة الأعمال بكلية بيروت الجامعية BUC والتي صارت بعد ذلك LAU (الجامعة اللبنانية الأميركية)، وعمل باكراً في المملكة العربية السعودية. وعاد في أواسط الثمانينيات إلى لبنان بعد أن ادّخر مبلغاً من المال، وانصرف لإدارة شؤون العائلة والمحافظة عليها وتكبيرها والعناية ببستان أبيه. فزادت مداخيله ومداخيل العائلة.

أما أنا فتابعت دراستي واشتغلت بالتعليم الرسمي ثم كاتب عدل عام 1980. وبطبيعة الحال كانت جميع معاملات رمزي وعائلته القانونية تتم في دائرتي، وكانوا يعملون برأيي وبملاحظاتي.

أُصيب رمزي بداء عضال، ومات أبو رمزي حزناً وكمداً على ابنه البكر وسنده. ولكن بعد الكثير من الفحوصات والعلاجات، أخبرهم الطبيب المعالج أن رمزي في وضع صحي جيد، وتبين أن لا أثر لذلك المرض الخبيث عنده.

وجاءت أم رمزي إلى دائرتي لتنظيم معاملة، وبشرتني بشفاء رمزي وهنأتني، وأخبرتني ودموع الحزن والفرح تنزل على خديها كيف ذهبت إلى الجبانة، وخاطبت أبا رمزي بقبره وبشرته بشفاء ابنه:

- قم يا أبو رمزي وانهض. تعال انظر إلى رمزي. ابنك رمزي لم يعد مريضاً، ولا شيء عنده. الفحوصات كلها طلعت نظيفة، والحمد لله. تعال شارك ابنك وشاركنا فرحتنا بنجاته وسلامته.

تأثرت كثيراً، وهنأتها بالسلامة.

لكن ذلك لم يكن صحيحاً. وكانت آمالاً كاذبة. رمزي كان في وضع صحي سيئ. ولا أمل بشفائه.

وحضر رمزي إلى دائرتنا مع زوجته وأمه، مصفر الوجه. طلبت أم رمزي مني تنظيم تنازل وتفرغ من رمزي لزوجته وأولاده، لأنها لا ترغب أن ترث بابنها، فوضعه ميؤوس منه. ومسحت دموعها. وسألتني أن أدعو له بالشفاء.

نظمت المعاملة. ولاحت مني التفاتة نحو رمزي. لمحته يرتجف لأن كريزة (نوبة) حادة أصابته. كان يرتعش وأسنانه تصطك. أشحت نظري بسرعة كي لا يراني، وتجاهلت حالته حتى لا أحرجه وأسبب له ألماً. سعدت لأن أحداً من الزبائن لم يكن موجوداً. أخذت توقيعه بعدما أصبح في وضع أفضل، وكان يبتسم ويقول إنه راضٍ وموافق وأن حقوقه وصلته، وهذا هو التوزيع الذي يبتغيه بين زوجته وأولاده لما يموت. وقال: أنا أعرف نوع مرضي ووضعي، ولست خائفاً.

بعد مدة مات رمزي. ذهبت وقدمت العزاء لأهله. كان الرجال مجتمعين في مكان والنساء في مكان آخر، فطلبت من أحد إخوته الأصغر إيصال السلام لأمه: سلمّ لي على أم رمزي، وأنقل تعازيّ إليها.

لما قدمت أم رمزي إلى الدائرة لتنظيم معاملة، شكرتني لإرسالي السلام لها والمواساة مع ابنها، فذلك أدخل العزاء والسكينة لقلبها. وقالت لي: أنا أحبك مثل رمزي وأخوته، وأنت تعرف ذلك.

بعد سنوات قليلة انتقلت أم رمزي للسكن في شرق صيدا قرب ابنتها، لأنه لم يعد ممكناً بقاؤها وحيدة في قريتها شرق صور. ولكنها واظبت على القدوم إلى مكتبي مرة كل عام من شرق صيدا لتجديد عقد عمل العاملة المنزلية، لأنها تفرح برؤيتي وتتذكر رمزي. فتضع إمضاءها على الأوراق، وتردد مبتسمة وبصوت جميل المقطع الأول من أغنية فيروز الشهيرة التي ألفها ولحنها سيد درويش:

زوروني كل سنة، مرّة

حرام تنسوني، بالمرّة

حرام..

توفيت أم رمزي. وتذكرت رمزي وأبا رمزي، وكأنهما رحلا الآن.

كَمَنْتَا شَسِيبِلْ

أو: ك م ن ت ا ل ب ي س ش..

هذه ليست شيفرة سرية حربية. ولا عبارة جاسوسية. وليست دمدمة كلمات سحر وشعوذة، أو طلاسم وأحاجي.

بل هي الدرس الأول، أو التمرين الأول من دروس تعلم الضرب على الدكتيلو (الآلة الكاتبة) العربية.

وآلة الكتابة التي استعملتها هي ماركة "OPTIMA"، صناعة ألمانيا الديمقراطية أو الشرقية، ومعناها باللغة العربية (الممتازة). وهي حقاً ممتازة.

هذه الآلات الكتابية شاعت وذاعت منذ بدايات القرن الماضي حتى نهاية الألفية الثانية للميلاد. بعدما حلّ الكومبيوتر مكانها، وأزاحها جانباً، ليتم وضعها في المتاحف، وفي ذاكرة الحضارة.

كان فضل الآلة الكاتبة على البشرية والمجتمعات عظيماً. وتم استعمالها في الأمور المدنية والشؤون العسكرية. كان هناك معاهد ومدارس لتدريس وتعليم استعمالها، وكيفية تشغيلها، وكانوا يخرّجون منها السكريتاريات والسكريتاريين للشغل في المدارس والشركات والبنوك والإدارات ومعاهد العلم، وفي الأماكن المطلوبة.

وقد استعملناها في كتابة العدل بمختلف المعاملات والسندات.

وكالات بيع سيارات - عقود بيع ممسوحة - وكالة عامة شاملة مطلقة يبيع فيها الوكيل موكله ويشتريه، كما كنا نقول تندراً وتوضيحاً - وكالات قضائية للمحامين، خاصة وعامة - وكالات قبض تعويضات - حسابات مصرفية - إسقاطات - تعهدات وعقود عمل - وغير ذلك الكثير مما شاع وذاع، واشتُهر بين الناس.

كانت آلات الطباعة تثير إعجاب الناس وانبهارهم. بفن استعمالها، وبالمهارة في الطباعة، والسرعة بإنجاز المعاملة. وبالخط العربـي الجميل والرائع. وبالصوت المنبعث من استعمالها عندما تطقطق الحروف وتطرطق، لمّا نخبط الحروف المعدنية على أوراق الكزّ (الكربون السوداء)، المحشوة بين الأوراق، لتعطي النسخ الكثيرة.

* * *

أحببت أن أهدي هذه الكلمات إلى شقيقتي نهى عرب. والتي عملت معي في كتابة العدل. ومن دون أن أنسى الباقين. لقد خدمت الدائرة، وخدمت الزبائن، وخدمت الناس والمنطقة والوطن، وخدمتني وخدمت العائلة. وعملت في المكتب وفي البيت، وفي أكثر الأوقات، على آلة الكتابة هذه لأكثر من 30 سنة. لم تتأفف، أو تهمل أو تتهرب. عملت بجدّ وغيرة وجدارة وصبر وشجعتني على خدمة الناس. كانت تغار عليّ كثيرا وتحامي عني وترأف بـي مشفقة. ولطالما أوصاني الأصدقاء الكبار السنّ من الرجال والنساء بالعناية بها. وقالوا لي بأنها تحفظني برموش عينيها. وقالت إحدى النساء الكبيرات مرة بأن الأخت العزباء تعطف على الأخ كالأم والأب، وهي أكثر من يغار عليه.

وجدت أفضل ما أقدمه لها هو تذكر جمائلها عليّ وعلى الآخرين. وتمنيت أن يعافيها الله دائماً، ويحفظها، ويعطيها الصحة والعافية.

* * *

ماتت أختي نهى بعد عذابات طويلة ومعاناة مع الأمراض، في يوم الاثنين الساعة الثانية عشرة ظهراً بتاريخ 3 تموز/يوليو 2017. كانت تمسك بيدي، وتنظر إليّ بصفاء وودّ. فاضت روحها إلى بارئها والابتسامة تضيء وجهها.

ربتنا صغاراً مع أمنا وحافظت علينا ودافعت عنا وحمتنا. كانت تطبخ لنا الطعام اللذيذ وتشتري لنا الأشياء والثياب والأغراض ولوازم المدرسة، وتراجع لنا دروسنا. كانت أماً ثانية لنا. وكانت أمنا الصغيرة.

إفراز بناية بنهاية الألف الثاني للميلاد

I

في يوم الأربعاء بتاريخ 17 تشرين الثاني/نوفمبر 1999 عصراً، توفي شقيقي وصديقي بشر عرب ورفيق طفولتي وشبابي، وسميري بالأحاديث الشيقة والممتعة المسلية، والمناقشات العلمية والفكرية، وبأوجاع وهموم الانتماء للعائلة والوطن والكون. خطفه الموت منا، فمات بعد صراع مرير ومؤلم مع المرض. تلك كانت أكبر مصيبة بتاريخ العائلة. هكذا وصفها أولادنا والجيران والأصدقاء، وأبكت الصغار والكبار، وأشعلت نيراناً في القلوب لم تُطفأ، وغصة وجرحاً لم يندملا، وإن تقبلنا الأمر وسلمنا بقضاء الله وقدره.

وفي يوم الخميس، بتاريخ 30 كانون الأول/ديسمبر 1999 عصراً، ولم يبقَ من العام إلا يوم واحد وبضع ساعات، حتى جاء تاجر مواشي اسمه أنور، طالباً تنظيم معاملة إنشاءات وفرز بنايته المبنية بضاحية قريبة، وتوقيع نظام ملكية الطوابق والشقق - الملكية المشتركة - وتسجيل الشقق المفرزة بأسماء أولاده أمانة ووفاء وصادق ومخلص، بشرط أن يكون حق النمى (الاستثمار) له ولزوجته حتى الممات. تمنيت عليه التأجيل لليوم التالي لأن الوقت متأخر، ولأجل الدقة بالعمل، والشمس قاربت على المغيب ولصعوبات المعاملات وكثرتها. لكنه أصرّ على إنجازها فوراً لأن صلاحية الوثائق المستخرجة - براءات ذمة وقيمة تأجيرية - والصادرة متأخرة، تنتهي بآخر يوم من السنة، وإلا سيضطر لأن يدفع رسماً مضاعفاً لمعاملة الإنشاءات، فالمهلة تنتهي غداً في 31 من الشهر الحالي. واعتذر لمجيئه متأخراً.

استجبت لطلبه، وقمت بترتيب المعاملات وتوزيع النسبة الألفية لكل شقة أي مقدارها مقارنة بغيرها من الأقسام. نظمت معاملة الإنشاءات والفرز إلى حقوق مختلفة. ونظام ملكية الطوابق والشقق وتحديد نسبة كل شقة فيها بدقة، وسألته عن الاسم الذي سيسمي به المشروع، فأجاب بأنهم سموها بناية - الإيمان -. وتم تنظيم وطباعة عقود البيع الممسوحة من الأب لأولاده، ومراجعة المعلومات وقراءة الأسماء والأرقام والتأكد من صحة المضمون، وأخذت تواقيع صاحب المشروع وزوجته وأولاده، والشاهدين، وانصرفوا جميعاً. غادر الموظف والأولاد والشاهدان، وبقيت وحدي مع أنور الذي استلم من زوجته مبلغ (1.000$) - يعادل مليون ونصف مليون ليرة لبنانية - مجموع الرسوم والطوابع والأجور ورسم نقابة المحامين. قبضت المبلغ ووضعته في جارور المكتب. أعطيت لكل معاملة رقماً وألصقت الطوابع وعطّلتها، وصادقت عليها أصولاً، ومهرتها بالخاتم الرسمي. صرت أُصَوِر النسخة التي عليها الطوابع لحفظها مع نسخة الدائرة، لأتفاجأ باختفاء مبلغ الألف دولار بكامله من الجارور، وبدا التوتر عليّ والقلق!

صرت أفتش وأُقلّب الأوراق بحيرة وبقلق. سألني أنور عما أبحث؟ أخبرته بأنني أُفَتّش عن الألف دولار التي طارت من الجارور واختفت فجأة!

قال لي: أنا لست سارقاً أو لصاً إن كنت تظن بـي ذلك. كل الناس يشهدون لي بالأمانة. وأخرج جيوبه الداخلية كلها، الجيب تلو الجيب، وصار يقلبها من الداخل للخارج ويريني أنه لا يحمل مليماً واحداً في ثيابه. وترك جيوبه مقلوبة. وصار يدعو على نفسه وعلى أولاده إن كان مدّ يده على جارور المكتب أو سرق نقوداً ليست له.

- ليتني أعدم أولادي لو أخذت فلساً، وأخسرهم. ليصبني البلاء ويحل ببيتي الخراب لو فعلت ذلك. إن شاء الله "أتشحّر" وأموت أوشم (أشأم) الميتات. لو مددت يدي على مالك أو مال غيرك وإن شاء الله أراها مقطوعة. أقسم بالله وبكتاب الله وبرسول الله، أنني لا أعرف شيئاً عن اختفاء نقودك. أحلف بأولادي وبشرفي. خذ تلفوني الخليوي وخابر الدرك ليأتوا ويفتشوني فتبان الحقيقة. لعنة الله على الغادرين..

ولا أعلم ماذا قال غير ذلك. تعجبت كيف أن رجلاً ثرياً وقوياً ينحدر ويهبط لهذا المستوى من التذلل وحلفان اليمين الكاذبة والمراوغة. شعرت بمزيج من الإشفاق والاحتقار والاشمئزاز لهذا الصنف من الناس. وصرت في حيرة من أمري، وكنت على عجل للقاء مروان وهشام ولدي أخي

بشر، ورؤية أولادي وإخوتي المجتمعين فوقي ببيت الأهل، وبأمس الشوق، وكنت أحاول أن أتجنب أية قلقلة أو توتير لهم.

كتمت غصّة القلب، وتركته لشأنه، ولم أعد أسمع شيئاً مما يقول، ولم أعرف كيف غادر، حتى أنني لم أرَه. ولم أكن أرغب أن أفكر به ثانية.

صباح يوم السبت في اليوم الأول للعام الجديد سنة ألفين للميلاد، التقيت في الطريق بأحد زبائن المكتب المحترمين. حيّاني وطلب ترتيب موعد لتنظيم معاملة اضطرارية. فاعتذرت منه ووعدته خيراً، وتقبل الأمر، متفهماً الظروف.

هناك، في بيت العائلة الكبير، كان إخوتي مجتمعين متشحين بالسواد، يستمعون لترتيل القرآن بصوت المقرئ الشيخ محمود علي البنّا الشجيّ الحزين من سورة آل عمران: **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**. كانت أخواتي يذرفن الدمع بصمت، فيما كان أخي الأكبر معن جالساً حزيناً واجماً، لا يتكلم. سألني إن كنت أريد شيئاً، فتمنيت له السلامة.

ذهبت إلى المطبخ. غسلت وجهي بالماء ماسحاً الدموع. وسلمت عليهم وقبّلتهم. جلست وقتاً وخرجت مغادراً.

II

عدنا إلى مدينتنا عصر يوم الثلاثاء بتاريخ 15 آب/أغسطس عام 2006 بعد توقف الحرب العبثية التدميرية التي وجدنا أنفسنا فجأة مرميين فيها، ذلك الصيف الحزين. كان الدمار عاماً شاملاً كل شيء. بدت الأماكن والأشياء كأنها خارجة من حرب ذرية. عملت مع عائلتي على تنظيف البيت وإزالة الزجاج المحطم وترتيب وتجهيز الأشياء بقية ذلك النهار الطويل الذي أمضيناه في لهيب الشمس وسط دخان السيارات والغبار، على الطرقات البطيئة الحركة والمدمّرة. قمنا بالتنظيف، ونمنا باكراً ذلك الليل كالصرعى.

اشتغلت بالأيام التالية وحيدا في مكتبي. كنت أقوم بتصوير عقود بيع ممسوحة، ووكالات بيع عقارات وشقق لأشخاص دُمرت منازلهم وضاعت سنداتهم ووثائقهم بالقصف والخراب، لإبرازها للحصول على مساعدات فورية وتعويضات سريعة. اشتغلت كثيراً، وصورت المستندات وسلمتها لأصحابها. اشتغلت وحيداً من دون الموظفين الذين لم يرجعوا بعد من التهجير. وبعد أيام عادوا. فأصرّيت عليهم بالحضور وشرحت لهم حساسية أوضاع الناس المدمرة بيوتهم. وبالفعل لبوا الطلب.

حضر في تلك الأيام المدعو أنور، وهو ذاته تاجر المواشي الذي أفرز بنايته في نهاية العام 1999 وقام بتفريغ الشقق المفرزة لأولاده والذي اختفى رسم معاملته وضاع، ولم أعثر حينها عليه. أخبرني بأن بنايته التي سجلها لأولاده عندي دُمرت بالكامل، وهو يريد صوراً عن عقود ومعاملات الفراغ والتسجيل ليقوم بتقديمها إلى مجلس الجنوب وللجهات المختصة لقبض التعويضات.

تفاجأت بقدومه وبجرأته على المطالبة بوثيقة مني! هكذا إذاً يجد الأمر سهلاً..

فكرت بنفسي. ثم أخبرته بأنني لن أعطيه صورة لورقة واحدة. سألني عن السبب فأجبته: لأنك قد اختلست مني الألف دولاراً عندما أفرزت البناء وسجلته لأولادك في ذلك الغروب، ومع أنني غير شامت بك، لكنني لن أعطيك شيئاً. واعجباه لجرأتك..

أنكر أنه تصرف هكذا، وأكد: أنا لم أمدّ يدي إلى قرش واحد من نقودك. وموقفك يا أستاذ مخالف لمبادئ العدل التي تحملها ويجب أن تتصف بها، ولا يحق لك أن تتهجم عليّ أو تستعمل النكايات الشخصية. كيف تريد إذاً أن أحصل على الأوراق؟ ولمن ألجأ؟

قلت له: افعل ما بدا لك. اذهب واشكني للقضاء، والجأ له. قل لهم إنني رفضت تسليمك صُوراً عن معاملاتك، وأنا سأجيب بأنك سرقت نقودي. لهذا السبب لن تحصل مني على ورقة واحدة، فالورقة التي سأعطيك إياها ستكون صك براءة مني على فعلتك التي فعلت.

تدخلت زوجته الواقفة بجانبه، شارحة أحوالهم السيئة والمأساوية، بعد تهدم بنايتهم، وكيف أصبحوا يبيتون عند الغرباء، وكم هم بحاجة للتعويضات وللنقود.

- حالتنا تقطّع القلب بعد أن صرنا بلا بيت! زوجي أنور رجل أمين لا يسرق، وحرام عليك أن تحطّ الناس بذمتك. قد يكون شخص آخر غير زوجي هو من فعل ذلك، وأنت نسيت.

أجبتها: أنا فعلاً نسيت الأمر منذ زمن. لكنني أعرف من سرقني ولم أصفح ولم أسامح. زوجك أنور هو من سرقني. لم يكن حينها غيره، وها هي الحرب تعود بعد سنوات لتذكرني بما فعله معي.

نصحتهما بالذهاب إلى الدوائر العقارية بدلاً من إحراجي، وتصوير معاملاتهم هناك وتقديمها للحصول على التعويضات والمساعدات. فذلك أشرف لي من أن أقر وأقبل خطيئة وظلما وقعا عليّ وأنا بقمة مأساة وفجيعة وفاة شقيقي الحبيب بشر. و"المؤمن لا يُلدغ من الجُحر مرتين".

خرجت المرأة وزوجها، وتابعت عملي مع الناس في ذلك الصيف القائظ الكئيب. وضعت رأسي مساءً على المخدّة، وصرت أراجع ما حدث وأستعيد الأشياء. أسفت لرفضي طلب ذلك الرجل، وبدا لي أن في الأمر خطأً ما كان يجب أن يصير وقسوة، وتمنيت لو يعود لأعطيه صوراً عن معاملاته، ونويت أن أرسل له شخصاً يخطره بالمجيء للدائرة لاستلام طلباته. ولكنني لن آخذ منه قرشاً واحداً.

عادا في اليوم التالي باكراً من دون دعوة، وأخبراني أنهما وجدا جميع سندات الملكية، وسحباها من بين ركام وحجارة بنايتهما المدمرة، وكانت كلها بحالة سليمة، ولم يفقدا منها شيئاً. قال لي:

- أنا لم أسرق منك في ذلك الغروب المبلغ الذي ذكرته كما تظن. لكنني نسيت أن أدفعه لك، وكلما كنت أتذكر وأهم بدفعه لك، كان يحول أمر ما دون قيامي به.

وأخرج من جيبه مبلغ ألف دولار أميركي وأعطاني إياه، ووضعه على الطاولة ورجع إلى الخلف. وقالت زوجته: سبب دمار بنايتنا يعود لعدم تسديد تلك الرسوم، ولانشغال ذمتنا نحوك، وهو عقاب إلهي تسبب به زوجي، وأنا أخاف على أولادي لعدم رضاك عن زوجي. والدليل الأكيد أن زوجي لم يدفع الرسوم المتوجبة هو عثورنا على السندات سليمة بين الركام وكأن ذلك درس لنا. ليتك تسامحه وتصفح عنه.

خرجا من الدائرة. كنت مذهولاً، فلم أنطق حرفاً. ثم خرجت مسرعاً لاحقاً بهما، وسلمتهما مبلغ الألف دولار وقلت لهما: لا أريد هذا المبلغ، خذاه فأنتما بحاجة إليه. وانسيا ما جرى. بنايتكم لم تُدَمّر بسبب عدم دفع الرسوم والأجور لي، بل تهدمت بسبب هذه الحرب العبثية.

Notes

[1←]
مثل لبناني. والدّبان: الذباب. اللبّان: بائع اللبن والحليب ومشتقاته.